
باجين
الجيل
٢
خريف في الربيع
ترجمة المحامي سهيل أيوب

خريف في الربيع

الإبداع
٣

باجين

خريف في الربيع

ترجمة المحامي سهيل أيوب

١

ارسلت شقيقتي الصغرى برقية من البيت تنبئني فيها بوفاة شقيقي البكر .

لم تكن لديّ فكرة عن كيفية وفاتـه . كنت أعرف أنـه صحيح البنية ويخطط لإعلان خطبته في اقرب فرصة .

رحت اتساءل : « هل هو حلم ؟ كيف يمكن أن يمـوت المـرء بمثل هذه السهولة ؟ وخاصة قبل إعلان خطبته ؟ » .

طردت هذه الفكرة من ذهني لأنه لم يتبدل حواليّ شيء عـلى الاطلاق . وليس ثمـة ما يذكرني بوفاته .

تلقيت في اليوم التالي برقية اخرى من أربعـة وثلاثـين حرفـاً تتضمن مزيداً من التفاصيل : لقد انتحـر شقيقي بأن حزّ عنقه .

ساعدني صديقي خو ، ويداه ترتعشان قليلاً ، في حل رمـوز البرقيـة .

استفسر قائلاً :

ــ ما العمل ؟

لم أعرف بماذا أجيبـ ! امسكت ذراعي ، وهمست في نفسي : « وهكذا فالأمر ليس حلماً بعد كل شيء » .

رنا خو إليّ مشفقاً . لا بدّ أني بدوت في عينيه الرجـل الأكثر تعاسة في هذا العالم .

وانزلق خارجاً من الغرفة قبل أن أتوجه اليه مستعلماً :

ـ فيم تنظر إليّ على هذا الفرار ؟

ارتميت على المتكأ وجعلت أطيل النظر إلى صورة جانيت غاينور المعلقة على الجدار . ابتسمت لي . هذه الفتاة البلهاء لم تبتسم لي منذ بعيد زمن ، ففيم تبسم لي هـذا النهـار على غير انتظار ؟ الضحك عليّ نذير شؤم . هي شقراء الطلعة ممتلئة صحة تلبس بلوزة زرقاء شاحبة . لكن ، ما علاقـة هذه الأمور بي ؟ إنها مجرد فتاة تصلح صورتهـا للتعليق على الجدار ، وهذا شقيقي الآن طواه الموت .

استدارت عيناي عن جانيت غاينور إلى الجدار الأبيض النظيف ، الأبيض الناصع . فبرز منه على غير انتظار وجه مضنى أسود اللون .

لم يكن ثمة شيء خاص في ذلك الوجه. قد يكون وجهك، أو وجهي ، أو وجه أي كان . لكن لا ، كانت النتيجة أنـه وجه شقيقي .

كان وجهه حقاً ، وجه شاب عادي يعكس صورة حياته العاديـة .

فتح فمـه فجـأة :

ـ أنا ميت . قطعت عنقي بيديّ .

فحاججتـه قائلاً :

ـ لا يمكن أن تفعل ذلك . لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً طالما أنك هنـا تتحدث إليّ .

قال في صوت حزين ، وعبرات كبيرة تنهمر من عينيـه الفائرتين :

ـ تلك السكين ، وذلك النزع ، وحشرجات المـوت الأخيرة!

لا يعرف أحاسيسي أحد . ولن يفتقدني إنسان ! على هذا النحو انتهت حياتي .

خاطبت نفسي في غموض ، في صوت أخفض من أن تسمعه اذن إنسان : « إذا كان رجل ميت يتحدث ويذرف الدموع فلا يكونن الموت شيئاً رهيباً . وإذا تجاوزنا هذا فالموت مكتوب على كل حي » .

ـ لا أريد أن أموت !

زم شفتيه ، وانتعش وجهه ، وكان فمه مجرد خط مستقيم ، وعيناه لوزيتين . حملقت بعينين متسعتين في وجهه الفارق إلى أن لاح لي مضحكاً اشبه بكعكة من شعر .

واستحال الجدار أبيض من جديد ، وامحت آثار وجه شقيقي عنه .

لعنت نفسي : « يا للعنة ! أنت تحلم بعينين مفتوحتين! »

كانت البرقية لا تبرح على المنضدة ، البرقية التي تحمل أربعة وثلاثين حرفاً .

٢

ـ كيف ترى تعزيني رونغ إن أنا رويت لها هذا النبأ ؟ الفتيات رقيقات القلوب ، ولا ريبة أنها ستستسلم للبكاء ، وتأسى علي . يحسن الا أخبرها .

وخطر لي أن قراري صائب .

دخلت في تلك الفترة بعد ان أخبرها خو بما حدث .

حذرتني قائلة ، وقد زمت فمها :

ـ إن أغضبتني مرة أخرى أفعل مثلما فعل أخوك .

إذن هي قادرة ، بدورها ، على زم شفتيها !

تذكرت كيف كان شقيقي يزم شفتيه ، فامتلأت رهبة .

ـ لا تقولي مثل هذا الكلام !
مددت يدي لأغطي فمها ، فيبست يدي .
اقترحت عليّ ، وقد التقطت البرقية تروّح بها وجهها :
ـ فلنتنزه قليلاً .
أعلنت ، وقد غمرني سأم :
ـ هل نذهب إلى الحديقة تحت هضبة الصخرة ؟
ـ كلا ! انا أمقتها . فأنا لا أحتمل رؤية ذلك البواب الملايي !
وأدارت رأسها في غضب ، ورمت البرقية على الأرض .
هممت ، وأنا التقطها واضعها في جيبي .
ـ حرام عليك .
وشددت جذعي ، وأضفت :
ـ يحسن أن نذهب إلى الحديقة حيث يتفاوح شذى الياسمين .
وافقت ، وقد خلعت على شفتيها بسمة :
ـ حسناً . ليكن ما تقول .
أغلقت البوابة ، وتبعت خطواتها . وانطلقنا .
تواثب كلب الجيران ينبحني . وسرعان ما هرب وهو يهز ذيله .
مشينا جنباً إلى جنب ، ولكنها ظلت تسبقني بمسافة ذراع واحدة . لم أستطع اللحاق بها . ماذا ترى في خاطرها يجول ؟
السماء ، والأشجار ، والبيوت ، والشارع تستحم بأسرها في اشعة الشمس . ودرب متعرجة تحمل وجهها النحيل صُعداً . وساقاها بجوربيهما الحريريين

الأسودين ، تحت تنورتها القصيرة ، ترقصان في رشاقة على الاسفلت الطري .

وصلنا إلى المقبرة فوقفت فجاءة . استندت إلى السور، ورنت في سكون إلى صفوف الصلبان والأضرحة التي تمتد تحتها .

ما أغرب أن تصرف فتاة شابة اهتمامها على القبور !

قلت في صبر نافد :

ـ فلنذهب . ما هذا الذي إليه تطيلين النظر ؟

لم تتحرك . أوضحت على غير انتظار في صوت مرنان :

ـ ما أهدأ الاضطجاع هنا !

صعقني حديثها المفاجيء ، فانفجرتُ أقول قبل أن أتمتم شيئاً ينذر بالشؤم :

ـ أنت ! . . . أنت غيرى . . .

نبرت مؤنبة ، لكن في صوت لطيف :

ـ لا تزعجني .

وأخذت يدي في يدها الناعمة ، وشدّت عليها بقوة .

نظرت إليها مشدوهاً وجنحت إلى الصمت .

ماذا يجول في خاطرها ؟ كيف يتاح لي أن أخمّن ؟

قريباً منا ، على ضريحين منفصلين ، إكليلان من ورد أحدهما ذابل والآخر نديان .

نبرت ، وهي تشير إلى الاكليل النديان :

ـ هـذا لك .

وأشارت من بعدُ إلى الاكليل الذابل :

ـ وهـذا لي .

صارحتها قائلاً ، وانا استشعر شيئاً يطوف في

ذهنهـا :

ـ لست أفهم .

ـ لستَ تفهم ؟

التفتت إليَّ بابتسامة فاترة . لم أرها من قبـل قطّ ترسم على شفتيها مثل هذه الابتسامة ، وأحسست أنها غير ضرورية . كانت ابتسامة عاجزة ، ولكنها لم تكن مريضـة . جعلتني أحس كما لو كنت أبكي .

أهنفت ضاحكة :

ـ لا ريبة أنك تمزح . رجل ذكي مثلك يجب أن يفهم ... مستقبلي كئيب وانا أشبه بهذا الورد .

وأشارت مرة أخرى إلى الاكليل الذابل ، واستتلت :

ـ انت مثل هذا الورد الآخر لأن مستقبلك بـرّاق . الاكليلان قريبان من بعضيهما ولكنهما ليسا معاً ـ مثلهما مثلنا تمامـاً .

مستقبلي براق ، هذا ما يقولون لي ربما للمرة المائة . غير أن أحداً لم يعالني بذلك من قبـل بحيث يجعلني أحسّ وكأنني أبكي .

أجبت وانا أغتصب ابتسامة ، ودون أن أحاول مواساتها خشية من أن انفجر باكياً :

ـ ليست هذه مقارنة مناسبة! فانت لا تستطيعين مقارنة الرجـال بالورد .

ـ ولكنني مغرمة بالورد كثيراً .

كانت تملك لساناً سريعاً يعجزني الرد عليه .

صحيح انها مغرمة بالورد كثيراً . ففي كل مرة اذهب إلى غرفتها أجد على المنضدة إناء كبيراً من الورد انطري مـن

مختلف الألوان . وعلى جدار الغرفة ثمة لوحة لوالدتها ، وهي امرأة في منتصف العمر .

قلت :

ـ لا ينبغي على صبية أن تتسكع في مقبرة ، إن لم نقل شيئاً عن اختلاس النظر إليها من وراء سورها .

وأطلقت ضحكة جوفاء لتغطية كآبتي .

افلتت يدي فجأة واستدارت تبغي الرحيل :

ـ حسناً . فلنذهب .

أغارت علينا عند بوابة الحديقة أشذاء الياسمين .

غمرتني الغبطة . قلت :

ـ حسناً ؟ أنا لم أخدعك ، أليس كذلك ؟

فابتسمت :

ـ أعرف هذا منذ البدء !

تسلقنا الدرج المؤدي إلى الحديقة . أهرق البواب اللابي عينيه الخرزيتين عليها وهو يمسح يديه بمئزره الأحمر المرسوم مربعات . كانت بشرته سوداء ، وفمه ملتوياً .

همست ، ونحن نمرُّ به :

ـ يا للمخلوق البغيض ! عيناه تنغرزان في وجهي ! هذا ما يحدث في كل مرة !

رددت ، وأنا ابتسم :

ـ ذلك انك فاتنة الجمال .

ـ لا تهرف ! أتسخر مني ، أنت أيضاً ؟ في هذه الحال يحسن أن تتركني وشأني .

وادعت الغضب ، وهرولت في سيرها .

وقفت حيث كنت ارنو إلى شكلها النحيل وشعرها

القصير الأجعد المهمل ، أفكر في تصرفها الأخـير . وشرعت تنخسني هواجس الظنون .

عثرت عليها أخيراً جالسة على دكة حجرية تحت شجرة ياسمين . كان راسها بين يديها ، تلوح مستغرقة في تفكـير عميق . وشعرها يتألق ببراعم الياسمين البيضاء الصغيرة .

تجاهلتني عن قصد .

جلست إلى جانبها ومددت يدي تمسك بيدها اليمنى، فأبعدتها عني . وحين قبضت عليها برهة من الزمن لم تقاومني بل استكانت إليّ .

استنشقت عبير الياسمين في شعرها ، وحملت يدهـا الناعمة . لم انبس بحرف على أمل ان أسبر غورها من دون كلمـات .

إن الألحان الكئيبة التي يطلقها كمان تساقط من بنـاء داكن نصف مغطى بالأشجار في جهته اليسرى . وشرع الملاييّ يغني بصوته الثاقب اغنية حب وطنية .

لم أستطع ان احدّد أين شردت أفكارها ـ او افكاري .

سألتني بغتة ، وهي تشخص في عينيّ :

ـ لين . اصحيح أن شقيقك انتحر ؟

ـ من دون ريب . رأيته البرقية ، أليس كذلك ؟

استفسرت :

ـ لماذا قتل نفسه ؟

أجبت صراحة :

ـ لست أدري .

لماذا تسترسل في الحديث عن أمور تعيسة لا ينبغي على صبية مثلها أن تعرف عنها شيئاً ؟ طرحت على نفسي هـذا

السؤال يعتصرني الحزن .

قالت في صوت مجهود ، ويداها ترتعشان بين يدي :

ـ اتساءل ماإذا كان ممكناً أن يقتل الانسان نفسه بيديه .

حاولت أن أبدّل مجرى الحديث ، فقلت :

ـ هذا شيء لا حاجة بك إلى معرفته .

فأصرّت قائلة :

ـ لكن ينبغي أن أعرفه .

قلته على مضض ، وقد أملت أن يحول جوابي المتبلد بينها وبين طرح مزيد من الأسئلة :

ـ أصغي إليّ إذن . هذا ممكن من دون ريب . لقد قتل شقيقي نفسه . وهذا شيء حقيقي .

همست ، وكأنها تخاطب نفسها :

ـ أن تعيش أو أن تموت ، أيهما أكثر سعادة ؟

سألت مفزوعاً :

ـ رونغ ، أما عدت تحبينني بعد ؟

شدهت :

ـ لماذا ؟ ما الذي أوحى إليك بهذه الفكرة ؟ متى قلت إني لا احبك ؟

ـ وجهك يدلّ على ذلك ؟

ـ وجهي ؟ أما تآلفت ووجهي ؟

وقربت وجنتها من شفتيّ ، فقبلتها . كان وجهها شديد البرودة بحيث أنبأني شيئاً ...

ـ في مثل هذا اليوم الرائع وهذه المنطقة الحلوة ، ألا يخطر لك في بال أن من السخف أن يتحدث عاشقان في زهرة العمر حديثاً مستمراً عن الحياة والموت والانتحار ؟

ردّت بعيد فترة :

ـ لا تشرع في تصور أشياء واشياء . أنا هنا إلى جانبك، فكيف يخطر لك في بال أني لا احبك ؟

لا مراء أنها ماهرة في إخفاء مشاعرها الحقيقية .

أجل . إنها إلى جانبي ، لكن قلبينا نائيان . ومـا هي المسافة بينهما شيء أجهله تماماً .

قالت في صوت هامس كمن تخاطب نفسها :

ـ الحب شيء جميل . أكثر جمالاً من أن يمرّ بدربي .

جاء صوتها حزيناً كئيباً مثل صوت ذلك الكمان الحزين الكئيب .

رنوت إلى الظلال على وجهها ، هذه الظلال ـ مثلها مثل برقـع الزفاف ـ تجعلها تلوح أكثر فتنة وبهاء . لكن هـذه العروس لن تكون لي .

شددتها اليّ كما لو كانت كنزي الغالي. وتهاطلت عبراتي مثل اللآليء على شعرها .

قالت ، وهي ترنو بابتسامة خيل إليّ أنها أكثر تأثيراً من الدموع :

ـ أنت تبكي .

وضعت إصبعها على شفتيّ ، ثم قبّلتها في انخطافة تشبـه انخطافة البرق .

وحين حاولت أن أقبلها نأت عني بوجهها .

كنت أطفح كآبة . فقلت :

ـ رونغ . أنت لست اليوم على مألوف ما عهـدتك . تبدلت . ما الامر ؟

ـ أنا لا أعرف أيضاً .

ـ أثمة ما أستطيع أن أفعله فأساعدك ؟ ينبغي على المحبين الا يكتموا عن بعضهم أسراراً .

فجاءني جوابها الصريح البسيط :

ـ حقاً اني لست ادري .

تساءلت ما إذا كان شيء تصدع فيما بيننا .

غربت الشمس في هدوء . وكان غسق شذي يحتوينا . وجعل اللايي ، حافي القدمين ، يراوح ويغادي امامنا .

نهضت على قدميها ، وأمسكت بذراعي :

ـ هل نعود ادراجنا ؟

فرجعنا ادراجنا على تلك الدرب المتعرجة .

قالت كمن تصدر امراً :

ـ أوصلني إلى بيتي . هل تفعل ذلك ؟

ـ حسناً .

ـ طهوت بعض الأصناف هذا الصباح خصيصاً من أجلك .

ـ حقاً ؟

ـ ولدي نبيذ ايضاً .

ـ لا أشعر بميل إلى الشراب .

ـ إنه نبيذ جيد أهدانيه صديق. واحتفظت به لأقاسمك إياه .

نظرت إليها نظرة عرفان بالجميل بدلاً من أن اقول شيئاً . فابتسمت مثل وردة تتفتح . وانقشعت الغيوم .

اجتزنا عدداً من المنعطفات وصعدنا في منحدر . عرفت بيتها المحاط بسور من سياج أخضر . وكان في ساحته براعم حمراء وبيضاء .

فتحنا البوابة ، وتسلقنا الدرجات ، ودلفنا إلى غرفتها، غرفة نوم وجلوس لصبية في برعم الورد .

اشارت إلى متكأ ، وقالت :

ـ إجلس هنـا .

إتجهت الى المنضدة وتناولت عنها إناء للورد وضعته على كرسي صغير لا ظهر له إلى جانبي . وضغطت وجهها على الورد واختفت وراء ستارة .

كان الورد زنبقاً ابيض وبنفسجاً أرجوانياً وقنّا أصفر .

انحنيت عليه اشم عبير الزنابق وعطرها هي .

ورجعت تحمل طبقين .

سألتُ على مألوف عادتي :

ـ هل أساعدك ؟

أجابت بابتسامتها المعهودة :

ـ كلا . شكراً . أنت لا تعرف ذلك . إجلس هنا هادئاً فحسب .

جهز الغداء الآن . طبقان على منضدة مدورة نواجه بعضينـا أمامهـا .

سألت على مألوف عادتهـا :

ـ كيف وجدت مذاق الطعام ؟

فاعطيتها جوابي المعهود :

ـ ممتاز . مثلما أحب بالدقة .

أخرجت زجاجة نبيذ من خزانة صغيرة .

صبت لي ملء قدح ، ثم صبت لنفسها قدحاً :

ـ انظر ! إنه احمر كالدم ، وبراق !

رفعتُ قدحها ، ورفعت قدحي .

شرع وجهي يحترق بعد القدح الأول .

قلت ، وأنا اضع القدح من يدي :

ـ هذا يكفي .

ملأت قدحي مرة أخرى في صمت ، وعيناها تشعان في وجهي وكأنها تقول : « هيا ! إشرب قدر ما تستطيع » .

شربت قدحاً آخـر .

وكانت هي قد شربت أربعة حتى ذلك الحين .

كان وجهها المتوهج جميـلاً ، وعيناها تلمعان بصـورة ساحـرة .

جعلت تدافع عن نفسها في نبرات متلاحقة، وصوتها أشبه بعصفور يغـرد :

ـ أنا لست سكرى ! لست سكرى !

وضغطت يدي على وجهها ، قائلة :

ـ تحسس وجنتيَّ وصدغيَّ . إنها باردة .

كانت يدها حارة ! وخداها يلتهبان ! ورغم ذلك تقـول إنهـا باردة .

كذبت عليها وعلى نفسي مترجياً أن أداعب وجهها فترة أخرى من الوقت :

ـ بلى ، إنها باردة .

رفعت الزجاجة لتملأ قدحي :

ـ إشرب مزيـداً .

فغطيت قدحي بيدي ، وابتسمت لهـا :

ـ شربت كفايتي . أية كمية أخرى ستسكرني. ويحسن ألا تكثري من الشراب . فلم تألفي تناول الخمور .

دفعت يدي عن القدح ، وملأته :

ـ رائع أن يسكر المرء . فهو يدفئني حتى أعماق القلب ، ويطرد همومي ويسبغ عليّ شيئاً من الاطمئنان . فلماذا نتردد ونحتار ؟ حينما نكون معاً يغدو العالم لنا .

وشرعت تغني في عذوبة .

ترجيته قائلاً :

ـ رونغ ، كفي عن الشراب .

ومضت ابتسامة على خديها الورديين . التقطت بعض الطعام بعصويها وقذفت به في فمها . استحثتني وصوتها حلو مثل العسل :

ـ تناول مزيداً منه .

اكلت ، فانبسطت أساريرها . نظرت في عينيها . وابتسمنا .

وضعت عصوي الطعام فجأة ، وقالت :

ـ راسي تدوّم .

ـ لا ريبة أنك سكرى . من قال لك أن تشربي كثيراً ؟

ـ سكرى ؟ مستحيل . أردت ان نركب قارباً في البحر لنراقب النجمات !

وانفتحت عيناها عن آخرهما .

اقتربت مني ونفخت في وجهي :

ـ هل أعبق برائحة الخمرة ؟

كانت انفاسها تعبق برائحة الخمرة . فما استطعت احتباس ضحكاتي .

ـ اذا نفخت في وجهي مرة أخرى قد اتقيأ غدائي . وتقولين إنك لا تعبقين برائحة الخمرة ؟

ربتت على راسي قبل ان ترجع إلى مقعدها :

ـ يا لك من وضيع !
سألت وفي نيتي إغاظتها :
ـ كيف انا وضيع ؟
اجابت :
ـ انت وضيع كيفما كان !
وظلت تقترب بمقعدها مني .
انحنت على كفي ، وقالت :
ـ رأسي في دوامة ، يا لين . لا اريد أن اشرب بعد الآن ـ ولا اشعر بميـل إلى الطعام أيضاً .
تحديتها ساخـراً :
ـ انت سكرى . وقـد نبّهت عليك . ألم افعل ذلك؟ألا زلت تودين الخروج في قارب لمراقبة النجمات ؟
هبت على قدميها متجهمة الطلعة :
ـ ولِمَ لا ؟
لكنها لم تلبث ان سقطت من جديد .
أقرّت ، وهي تهزُ رأسها :
ـ حسناً . استسلمت . لست أهلاً لذلك ، فأنا يقتلني الضنى .

٣

صعب عليّ كثيراً النهوض من فراشي في صباح اليوم التالي .
فيما خارج النافذة أزهار بيض وحمر تتبسّم تحت أشعة الشمس . وتناهى إلى سمعي رنين جرس دراجة يدفُ من البوابة .
حمل إليّ ابن صاحبة فندقها الصغير رسالة كتبت فيها :

لين . يؤسفني اننا لم نذهب لمراقبة النجمات في البحر الليلة الماضية لأن الخمرة لعبت برأسي . من الغرابة بمكان ، بل مما يبعث على السخرية كثيراً أن تحدّق في النجوم وأنت سكران . كان ينبغي أن تصحبني إلى هناك . يجب أن نذهب الليلة لمراقبة مجموعات النجوم والإصغاء إلى وشوشات البحر . أشعر أني حبيسة ، وأتوق إلى التطواف في البحار .

سنطلقن القارب من دون هدف . وتستطيع أنت أن تجلس هنالك تهدهد رأسي بذراعيك في حين أروح أراقب النجوم واصغي إلى صدى أنفاسك . وهكذا اشعر بالاطمئنان بين ذراعيك إلى الأبد . لن يرانا احـد أو تفضح التجمعـات لنـا سراً . ولسوف يكونن العالم بأسره لنـا في ذيالك البحر!

وتروي لي أنت أسمـاء النجوم ، الحمراء والخضراء ، وجميع القصص الجميلة التي لها علاقة بهـا .

أواه ، فالذكرى تطوف ببالي .

بكيت الليلة الماضية . لماذا بكيت . لست أدري . بقـع الدموع على المتكأ وغطاء الوسادة تذكرني كيف تخاصمت معك، ولربما نقلت جميع متاعبي إليك .

عاجزة انا عن تذكر الوقائع . أزعجتك ؟ ان كنت فعلت فهل تصفح عني ؟

لم أعتد الشراب ، لكن ذلك النبيذ كان لوناً براقاً ! وكان بالتالي كثيفاً مثل الدم ، فكيف أقاوم ولا أعبّ منه ؟ إن لديّ زجاجة ثانية هنا نشربها عندما تزورني زورة أخرى . لين . إذا كان الشراب مؤذياً فلنكن مؤذيين مرة واحدة . الشبـان دائماً على هذا الغرار ، اليس كذلك ؟ أرجوك الا ترفضني ، يا لين . لا تخلع على وجهك تلك الطلعة المهيبة مثـل واعظ أخلاقي .

وكان هنالك ملحوظة أخرى :

هذه الباقة من الزنابق أخذتها من إنائي . أعرف أنك تحب الورد فانتقيتها لك خصيصاً . أبقها برفقتك كرمى لي ، واترك عبيرها يبدّد حذلقتك .

مع حبي ،
رونغ .

سألت الصبي في انشداه :
ـ أين الورد ؟ الزنابق ؟
ارتبك الصبي ، وحملق فيّ بعينين جاحظتين :
ـ ليست لدي فكرة . اي زنابق ؟
ـ تقول في رسالتها إنها ترسل إليّ باقة من الزنبق ، فأين هي ؟
ـ طلبت إليّ السيدة الصبية ان أعطيك هذه الرسالة ، ولم تعطني زهوراً .
صرفته وقد استفزني النزق .
ياللفتيات من مخلوقات غريبة ! فيم تراها تفكر ؟ أتحاول ان تستحمقني ؟ أنا لست ممن يُستحمقون .
وثبت من سريري وركضت وراء الصبي :
ـ هاي ، أنت ! إرجع إلى هنا !
لقد تأخرت . لم أعثر للصبي على أثر . وكان هنالك كلب ينبح عند البوابة .
شعرت بحرارة الأرض تحت قدمي . فتيقنت عندها انني لم ألبس حذاء .
كان النهار فاتناً . أزهار حمر وبيض تتفتح في حديقتي .

ولكن من دون زنابق .

التقطت اذناي نغمة خافتة يرسلها الأرغن في الكنيسة، فعرفت أن اليوم أحـد .

الى اين أذهب ؟... للعثور على رونغ .

نبح الكلب حينما كنت أعقد ربطة عنقي. وصرّت البوابة وهي تنفتح ، ودخل خـو .

سأل :

ـ هل جاءت برقية أخـرى من البيت ؟

ـ كلا .

ـ رسالة ؟ ينبغي أن تكون الرسالة وصلت الآن .

ـ أجل ، كان ينبغي أن يخطر لي ذلك .

ـ إذن ، ليس ثمـة أنبـاء جـديدة ؟

ـ أبـداً .

ـ لمـاذا انتحر شقيقك ؟ ألديك أيـة فكرة ؟

ـ كلا ، لست أدري .

جلس قبالتي . كنت على الكنبة ، وعنق ياقتي مفتوح ولم أعقـد الربطـة .

اعتصم كلانا بالصمت فترة. أفصح وجهه النحيل وعيناه الغارقتان عن بؤس حياته كرئيس تحرير صحيفة يومية .

نظر كلٌ منا إلى الآخـر . كان وجهه مظلماً مثل سماء غمرتهـا الغيوم .

حطم سكينة الصمت في صوت مكتئب :

ـ لين .

رميت بصري من النافـذة وقـد تراءى لي أني سمعت صدى غراب ينعـق .

تردد قائلاً :
ـ لين ، ما كان يجب أن ...
تطلعت إليه ، متظاهراً أني أصغي في اهتمام .
ـ أنا لم أرك تبكي لوفاة شقيقك .
اجبت في برودة :
ـ كلا .
كان على حق . فأنا لم أذرف عبرة واحدة . لم أكن أستطيع إرغام نفسي على ذلك . أتراني أستطيع ؟
قال متراخياً :
ـ أنت لم تضطرب على الإطلاق . وحدها رونغ من تأسر تفكيرك .
ولم يكن وقاره ليخفي الإرهاق المرتسم في عينيه :
ـ وهذا ليس عدلاً . شقيقك كان طيباً معك الطيبة كلها .
سألت في اقتضاب :
ـ أنت لن تذهب إلى مكتبك اليوم ، أليس كذلك ؟
كنت أعرف أنه لا يذهب إلى عمله يوم الأحد لأن الصحيفة لا تصدر يوم الاثنين . ولم أكن أريده أن يأتي على ذكر شقيقي .
أجاب في وناء :
ـ طبعاً لن أذهب .
مما لا ريبة فيه أنه كفّ عن إرشادي .
وصلت إلى النقطة الهامة :
ـ هل نذهب لرؤية رونغ ؟
فأجاب في اكتئاب :
ـ كلا . فأنا لا أشعر أني أحب الذهاب .
لم أعره إنتباهي ، بل عقدت ربطة عنقي ، ولبست

بدلتي ، ثم أرغمته على الذهاب برفقتي .

كان لا يبرح معتكر الوجه ، فانغمرت سروراً . كان رجلاً طيباً صبوراً على كل شيء . وما أكثر ما يتشكى من حياته ، وقدره ، وكل ما ينزل بساحته مما يعتبره غير معقول . لكن من دون فائدة . فاستسلم أخيراً وتآلف مع هاتيك الأمور . يا له من رجل يبعث على الشفقة ، رجل طيب يبعث على الشفقة !

تسلقت الشمس خلسة من قمم الأشجار إلى السقوف وارتدت إلى الأرض . كانت الأزهار تتفتح في كثير من الحدائق. والناس ، على طول الشارع المتعرّج الذي تظلله هنا وهنالك أوراق النباتات ، يراوحون ويغادون. والأطفال يضحكون وراء بوابات بيوتهم . وظهرت امرأة غربية سمينة حول المنعطف واختفت على الفور في زقاق صغير .

تشكى خو من جديد :

ــ أنا مريض ومتعب من الحياة في مكتب الصحيفة . مثل هذه البلدة الجميلة ، ورغم ذلك فأنا لا أستطيع التمتع بشيء من الحرية .

رفع بصره إلى السماء الزرقاء عبر الشجر وترك الشمس الدافئة تداعب وجهه المضنى . نادراً ما كان يرى الشمس ، خاصة وأنه يعمل في مكاتب الصحيفة منذ سنوات عديدة .

كاد أن يئن قائلاً :

ــ أنت أكثر مني حظاً . كل شيء يبعث على الاكتئاب في بيتي : الضوء الكهربائي ، والمقصات ، ووجوه منضدي الحروف الهزيلة . الحياة رتيبة رتيبة ، فأنت لا ترى غير قلة من الأشخاص المعدودين ، والوجوه المتعبة ذاتها .

قلت في صورة آلية،وقد سمعت منه مثل هذه الشكاوى عديداً من المرات :

ــ لم لا تستقيل إذن ؟

وعد في وجهي فكأنه لــدغ :

ــ وكيف أعيش إذن ؟

كان منطقه بسيطاً : المــرء يعيش على ما يدفع ، فينبغي عليه أن يمضي حياته وهو يجتني المال . وبكلمات اخرى ،كيما تبقى في قيد الحياة ينبغي أن تبيع حياتك قليلاً قليلاً . ولم يكن خو يريد أن يبيعها ، ولكنه لم يكن لديــه خيار .

ــ وهنالك أمي ، وهي الشخص الأكثر اهمية في حياتي. انا ارسل إليها نقوداً في كل شهر . وإذا لم أعمــل ، فبماذا تراها تعيش ؟

صحيح أنه كان لديه أم يتحدث عنها على الدوام . طلب إليها أن تشاركه الحياة هنا ، ولكن المــرأة العجوز تخــاف الرحلة عن طريق البحر وهو يرسل إليها في كل شهر عشرين يواناً دون انقطاع . كنت أعرف هذا كله . أضف إليه اني كنت أستطيع أن أقرأ هذا في ملامح وجهه ــ ففي كل مــرة يرسل إليها نقوداً تهرب الدماء من وجهه . كانت أمه تعيش على دماء ولدها من دون ريب !

أخبرني مــرة :

ــ أوصى بي صديق للالتحاق بعمل عبر البحار . كــان يمكن أن اعثر على عمل أفضل هنالك . غير أن أمي لم تسمح لي بالسفر،وكنت أنا أرفض أن ابتعد عنها كثيراً . هذا البعد يجعل من الصعوبة بمكان ادخار المال لأعود لرؤيتها . ومع هذا فإن صاحب صحيفتنا لم يكن راغباً في السماح لي بالرحيل.

كان صديقي الوحيد الذي يحبّ أمه بمثل هذا العمق . وقد ناح مرة طوال يوم كامل بعد مشاهدته فيلماً بعنوان « أمٌ حنون » .

قال :

ــ لديّ إنسان وحيد عزيز على قلبي ، وهذا الإنسان هو امي . وأنا على أهبة الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيلها .

كانت لديه أمه التي يحبها ويتحدث عنها في أغلب الأوقات . أما أمي فقد استراحت في قبرها منذ زمن طويل ، ولم أكن واثقاً من مكان هذا القبر ، لم أتحدث عنها على الاطلاق . لربما لم أكن أحبها قط .

دخلنا عبر البوابة الخضراء ورأينا رونغ واقفة على السلّم مرتدية بلوزة زهرية اللون وتنورة قصيرة سوداء .

حيّتنا بابتسامة ، ابتسامة تشبه الربيع ، ووجهها يشعُّ مثل تويجة تحت الشمس .

خاطبت خو قائلة :

ــ اليوم هو يوم عطلتك ، ما ؟

أجاب ، فانهمر صوته مثل المطر في ليلة خريفية :

ــ لم أنم أكثر من ثلاث ساعات في بكور هذا الصباح .

ضحكت ، فسبحت ضحكتها مثل رنين جرس فضي :

ــ سكرت الليلة الماضية وتشاجرت ولين .

دافعت عن نفسي وقد تجهمت :

ــ لقد سكرتُ . أجل . ولكننا لم نتشاجر . كانت توالي الضحك والبكاء .

فيم تضرب على وتر مشاجرتنا ؟ نحن لم نتشاجر على

الإطلاق . كانت سكرى ، وبكت من دون سبب ، ورفضت أن أذهب وطلبت أن أبقى معها . ولم أفهـم كلمة واحـدة مـن انفجارتها الباكية .

ارتسمت ابتسامة وضاءة على وجهها المتورد :

ــ لم لا تتناول غداءك معنا هنا ، يا خو ؟ مازال لـديّ زجاجة من النبيذ الطيب . حقاً ، إنه براق مثل الدم ، وغني مثـل الـدم .

أتاحت لي ابتسامتها نسيان حـوادث البارحة . كـان يستحيل أن فتاة تبتسم بمثل هذا الإشراق اليـوم انخرطت الليلة المنصرمة ليس غير في بكاء مرير .

قال خو من دون تردد :

ــ كففتُ عن تعاطي الشراب . كتبت أمي إليّ تمنعني عنـه .

كان يعتبر كلمات أمـه من كلمات الإنجيل .

عقدت رونغ حاجبيها فكأنهـا نخـزت بإبرة . واختفت البسمة المشرقة . واغتمّ وجهها .

همهمت في صوت منشدهٍ :

ــ أمـاه ... أمـاه ...

كنت أعرف أن أمهـا طريحة الفراش،تعاني من الشلل .

ناديت مرات عديدة كيما أوقظها :

ــ رونغ !

ودلفنا ، من بعد ، إلى حجرتها .

على مألوف العادة كان على المنضدة إناء للورد : قنـا صفراء ، وبنفسج أرجواني ، وورد أحمر . ولم يكن ثمة شيء من الزنبـق .

تذكرت رسالتها ، فقلت :

ــ أين الزنابق ؟ تلك التي رغبت في إرسالها إليّ .

أشارت إلى المنضدة المدوّرة التي فوقها إناء من الزنبق شاهدته في الليلة الماضية .

أخرجت الباقة منه ، وفكت الشريطة الصفراء التي تحيط بالسوق . لم يكن ثمة ماء في الإناء .

ــ قررت انك ستحضر لأخذ هديتك بنفسك . أظنُ أنك تعرف ماذا قصدت .

اليوم فحسب بدأت أفهم .

جلستْ وخو يلعبان الشطرنج وانزلقت أنا إلى ماوراء ستارة سريرها .

رأيت على السرير لحافاً حريرياً أخضر رقيقاً ، وشرشفاً مطبوعاً بورد أزرق ، وغطاء وسادة مطرزاً بهذه الكلمات : « صداقة لا تزول » . كان غطاء الوسادة هذا واحداً من اثنين ، فالآخر موجود على سريري .

تنشقت رائحة مثل رائحة الزنبق .

انطلق صوتها الرنان مستفسراً :

ــ ماذا تفعل هنالك ؟

ــ انظر إلى غطاء وسادتك .

ــ ما الذي تنظر إليه ؟ لديك الغطاء الآخر ، اليس كذلك؟ تعال راقبنا نلعب الشطرنج .

ــ أحاول العثور هنا على آثار العبرات التي جئت على ذكرها في رسالتك .

فما سمعت غير صدى قهقهة . واستغرقت في اللعب من جديد .

اضطجعت على سريرها ودفنت وجهي في وسادتها الندية قليلاً والتي رطبت خدي الملتهبين . ففمت أنفي رائحة حلوة . هذه الفتاة تجرني إلى الجنون .

نادتني عدة مرات فتظاهرت بالنوم . كنت في الحقيقة استرجع ذكرى كيفية لقائنا وكيفية وقوعنا في الحب . كنت مستغرقاً في أحلام اليقظة .

٤

« زينغ بيرونغ ! »

لمحت هذا الاسم للمرة الأولى في سجل المدرسة المتوسطة في بلدة س ... ، حيث ذهبت أدرّس اللغة الانكليزية .

حملت السجل ، وناديت على الأسماء المدونة فيه واحداً واحداً ، وأنا أتوقف كل مرة كيما أعوّد نفسي على كل وجه جديد .

ومن ثم وصلتُ إلى « زينغ بيرونغ » .

رنّ الجواب أشبه بجرس فضي . عينان كبيرتان تتفحصانني . كان وجهها بيضوياً ، وشفتاها الحمراوان منعطفتين في ابتسامة فضولية . وما أسرع أن خفضت رأسها فما عدت أستطيع أن أرى غير شعرها القصير اللماع .

هكذا تعارفنا .

لم تكن تلميذة داخلية ، ولكنها تحضر باكراً وتخرج في وقت متأخر . وكانت تتردد إلى غرفتي في أغلب الأوقات وفي جعبتها عدد من الأسئلة ، ثم غدا جزء من أسئلتها لا علاقة له بدروسنا في الصف . وحين عاودت ظهورها بعد العطلة الصيفية أتيحت لنا فرص عديدة للحديث .

وراء مدرستنا ثمة مجرى مائي تنمو على ضفتيه أشجار

اللونغان . في تلك الغابة الصغيرة امضيت كثيراً من الساعات السعيدة . كانت الأشجار مزهرة حينما تعرفت إليها . وحين حملت هذه الأشجار ثماراً كنا غدونا صديقين .

احببنا معاً الأوراق الخضر والثمار الصفر في تلك الأشجار .

بين النباتات الخضر للأشجار الكبيرة تتدلى عناقيد من الثمار الصغيرة المدورة الخضراء الزيتونية . ولم يكن علينا أكثر من أن نرفع يدنا فنقطف قليلاً منها ونلتهمه في الغابة أو إلى جانب الجدول .

ثمار بيضاء ؛ وبذور بنية اللون ؛ ولحاء أخضر زيتوني ؛ وعينان ؛ وحديث عن كل شيء تحت الشمس . واستسلمنا للحب .

غادرت بلدة س ... بسببه منها . وهذه هي قد جاءت إلى هنا مؤخراً بسبب مني .

وكان كل منا يعيش مع أصدقاء له .

٥

كنت استغرق في احلام اليقظة ، ولم يكن لأحلامي من نهاية .

لم أستطع معرفة كنه نفسية هذه الفتاة . فهي في الفترة الأخيرة تتصرف تصرفات شاذة .

هي التي بدات الهجوم عليّ ، وحطمت جميع دفاعاتي ، بحيث غدوت لها أسيراً . ومن ثمة شرعت تتردد .

ماذا ينبغي أن أعمل ؟

الفتيات حمقاوات من دون ريب . كانت تستفزني غالباً بحيث أشرف على الجنون ، في ذات الوقت الذي تتظاهر هي

فيه باللامبالاة والتحفظ .

لم تكن حنوناً بالقدر الذي كانت عليه . وظلت تخفي أسرارها عني .

ماذا ينبغي أن أعمل ؟

هذه القضايا تنهك تفكيري .

كانت الشمس تشرق براقة خارج النافذة . والريح تحمل اغنية روسية يرنُ صداها على الدوام مفعماً كآبة .

على حين غرة انثالت رونغ تنشد في عذوبة أغنية « أنت دائماً بين ذراعي » .

كنت لا أبرح مضطجعاً على سريرها ، ووجهي مدفون في وسادتها . رجوت أن أرطب وجنتيَّ بآثار عبراتها ، ولكن هذه الآثار جفت تماماً .

همست في جوانحي :

ـ أيها الضعيف الضعيف !

« ما قيمة هذا السرير وهذه الوسادة إذا فشلت أخيراً في الحصول عليها ؟ » .

« فشلت أخيراً في الحصول عليها ؟ هذا خارج عن نطاق البحث ! لا أستطيع التفكير في الحياة من دونها » .

« أيها الضعيف الضعيف ! لماذا لم تسوِّ هذه المشكلة منذ زمن بعيد ؟ لماذا لم تقترح عليها الزواج ؟ » .

« ماذا لو انها كفّت عن حبي ؟ إذا هجرتني وأحبت شخصاً غيري ؟ » .

« كل شيء محتمل من دون ريب . وليس ثمة نهاية للرجال الذين يفضلونني . حتى إن العشاق المعاميد يمكن أن يكفوا عن الحب » .

وضعت هذه الأسئلة وأعطيت الأجوبة عنها .

كانت رونغ وخو يتخاصمان بشأن « معجّلة » .

هتفت ضاحكة :

ـ لين ، تعال ساعدني ! أنائم أنت ؟ إنهض على الفور .

نهضت وشرعت أبتعد عن السرير حين لمحت رسالة تحت وسادتها .

ما استخفني لأني لم ألمحها من قبل !

التقطتها وتفحصت المظروف ، فعرفت خط والدها . كانت الرسالة قد وصلت قبل أربعة أو خمسة أيام . ووالدها ، فيما اعرف ، لا يحب الأشخاص من المقاطعات الاخرى .

دفعني الفضول إلى معرفة ما تحويه الرسالة . وبدلاً من أن أخرجها من مغلفها دفعت المغلف تحت الوسادة من جديد .

خرجت من وراء الستارة يفعمني الأسى لأنني لم أقرأ الرسالة .

حين وصلت إلى المنضدة كانت المعركة بشأن « المعجّلة » قد انتهت .

عنفتني قائلة :

ـ أكنت تغطّ في النوم حقاً ؟ لِمَ لَمْ تردّ عليّ ؟

لم يكن وجهها معتماً ، وكانت عيناها ترقصان . واضح أنها فشلت في السيطرة على خو .

كان خو يملك « حصاناً » في إحدى يديه وهو متردد ، ولمحت نظرته العامرة بالتركيز المتوتر باعثة على السخرية .

ظلت تستحثه على الإسراع عبثاً . فبدأت تدندن اغنية « رامونا » ، وهي تصاحب إيقاع النغم بضربات من أحد

بيادق الشطرنج .

رفعتُ رقعة الشطرنج ، فناثرت جميع القطع ، وهوى بعضها متدحرجاً على الأرض :

ــ فيم تأخذان اللعبة بمنتهى الجدية ؟ لعب الشطرنج يبعث على الكآبة !

ضربت الأرض بقدمها، مهددة بضربي ، من دون أن تغيب ابتسامتها عن شفتيها :

ــ ماذا تحسب أنك تفعل ؟ كنت سأربح بعد لحظة واحدة .

ركضت ودلفت وراء الستارة متعمداً . ارتميت على السرير حين اندفعت ورائي . لطمتني مرتين على رأسي وأمرتني أن أطلب غفرانها .

سحبت على الفور الرسالة من تحت الوسادة ، ولوّحتُ بها أمامها ، ثم تظاهرت أني سأخرجها واقرأها .

أربدّ وجهها ، فاختطفت الرسالة مني ، ودستها في بلوزتها ، وتركتني دون أن تنطق بحرف .

ناديتها ، وقد صدمني استياؤها :

ــ رونغ ، رونغ .

أسفت على ما بدر مني ، فرغبت في مواساتها .

تطلعت من فوق كتفها في هدوء ، ولكنني لم أفهم ، لسوء الحظ ، التعبير المرتسم في عينيها .

٦

اقترح خو القيام برحلة إلى دير جنوبي بوتيو . وافقت رونغ بعد تفكير قصير . ولم أقل أنا شيئاً . لم أكن أبالي سواء ذهبنا أم لم نذهب .

مشينا نحن الثلاثة على طول الشارع الإسفلتي . كانت الشمس تتراقص على رؤوسنا العارية .

وجهها مربدُ الأسارير ، ورأس خو يرشح بالعرق ، وراسي لا استطيع ان أراه .

ذهني مشغول بالزنابق التي وعدت بإرسالها إليَّ . وانا أخشى أن تذبل قبل عودتنا لأن الإناء فارغ من الماء .

كان المارة الآخرون يثرثرون ، لكن أحداً منا لم ينطق بحرف . أخرج خو منديلاً يمسح به وجهه الراشح عرقاً .

كانت أشجار اللتشيه مزهرة . والنحل يحاصر أغصانها يؤزُ ويطنُ . وأخيلة النباتات المورقة تتدلى على الأرض التي تذهّبها أشعة الشمس .

مررنا في طريقنا بالحديقة فغمرتنا على الفور اشذاء الياسمين . كان البواب الملايي يغني أغنيات حبه ووَطَنه .

صرخ صوت في فؤادي :

ـ ما أجمل الربيع !

استدرت أرنو إليها . كان الاربداد قد اختفى من وجهها . وهي تمدُّ يدها بين حين وحين تهندم شعرها الأسود الكثيف ، كاشفة عن ذراعها النيلوفرية البيضاء .

مرت بنا فتاة تلثغ باللهجة المحلية ، مرتدية لبوساً مرحاً ، منتعلة حذاء عالي الكعب ، وهي تحمل مظلة حمراء صغيرة تحميها من وهج الشمس . اشار خو إليها باعتبارها مثالاً للجمال الجنوبي المثالي .

كان الشارع الصاخب محاطاً بأكشاك حمراء وخضراء لبيع الثمار ، ومقاهي علقت على جدرانها لوحات خشبية كتب عليها ((**ثلج**)) . وكان هنالك بحارة بريطانيون بثياب بيضاء ،

وشرطة صينيون يمشون في خطوات منتظمة ، ومجموعة من الإعلانات الصينية المكتوبة بلغة عامية صرفة .

استرعت انتباهي أشياء كثيرة لم يتح لي مايكفي من وقت لأستوعبها جملة .

في ظلال شجرة أثأب ضخمة ثمة معبد صغير يهب الدخان من محرق حديدي للبخور موضوع أمام بوابته . وثمة أعلام ملونة مثلثة الشكل معلقة على بوابات بعض الأبنية الغربية ، وأعلام أخرى تحمل التماسات لحماية دينية .

وصلنا إلى رصيف منه نطل على انفساحة كبيرة من البحر . كان عدد من قوارب السمبان المدهونة البراقة راسياً هنالك .

استأجرنا قارباً وجدّفنا في البحر .

تذكرت توقها لمراقبة النجمات من البحر ، فسموت ببصري عالياً . لم يكن ثمة غيوم . كنا محاطين بالسموات الزرقاء ، والشمس العظيمة ، والمياه الحليبية .

تقدمنا في بطء . فحملت إلينا الريح نداوة . ولما لم يكن في البحر امواج كبيرة فقد كنا أشبه بمن يجدّف على البحيرة الغربية في هانغتزو . لكن البحيرة الغربية لا تقارن بهذا البحر الفسيح !

أشعة الشمس المنزلقة على المياه تجعلها تتضوأ مثل الاطلس . ومرت بنا سفينة شراعية من نوع الينك فشقت المياه الساكنة . وتأرجح قاربنا انخفاضاً وعلواً ، فرشت المياه شعرها .

جففته بمنديلي . فالتفتت إليّ باسمة .

شعرت بالجرأة على الاستفسار :

ـ فيم جنوحك إلى مثل هذا الهدوء اليوم ، يارونغ ؟

فانحدر صوتها واضحاً مثل الجرس ، ولكنني خشيت أن ينشدخ هذا الجرس :

ـ لست أدري . ربما كان ذلك بسبب من آثار الشراب .

كانت قريبة قريبة مني ، يكفي أن أمدّ يدي فأحضنها بذراعيّ .

أحببتها كما لم أحبها من قبل ، وكنت أعطيها حياتي بكل سرور ، ورغم ذلك لم أكن أستطيع أن أمـدّ يدي فألمسها .

تطلعت إلى يديّ ، وهمست في فكري :

ـ هيـا ! هيـا !

ثم رنوت إليها كما لو كنت سأفترسها . وفي اللحظة التالية ، على أية حال ، حولت بصري أراقب سفينة حربية بريطانية ذات ثلاث مداخن .

حين رسونا على الشاطيء المقابل لعنت نفسي سراً :

ـ أيها الضعيف الضعيف !

وابتسمت ـ ابتسامة خجولة خفية المعنى .

ركبنا باصاً يوصلنا إلى جنوبي بوتيو .

في الباص لم أتحدث أنا أو تتحدث هي إلا قليلاً . ظلت تمدُّ بصرها تستمتع بالمناظر .

وكان خو ثرثاراً في جعبته أشياء كثيرة يسردها عليّ ، باعتبار أنه زار هذا المكان مرات عديدة من قبل ، في حين أنها زيارتي الأولى له .

ترجلنا من الباص فشاهدت معبداً مبنياً على طراز نصف صيني ونصف غربي . خرجت منه امرأتان ترتديان ثوبين من الساتان الأخضر على آخر طراز ، وقد صبغتا وجهيهما بأدوات

التجميل بكثرة . وكان ثلاثة طلاب يلحقون بهما مرتدين ثياباً غريبة .

أدارت رونغ رأسها . انفجر الطلاب ضاحكين ، وتوقفوا لحظات ، ثم تراكضوا وراء تينك العاهرتين .

همست رونغ تخاطبني من بين أسنانها المنقبضة :

ـ انتم الرجال مقرفون حقاً !

ضحكت مثلما ضحك خو . أردت ان اقول : «هذا بسبب من انكن جميلات ! » . لكنني لم أفعل ذلك .

أول شيء رأيناه في المعبد كان أربعة تماثيل عملاقة تدعم جانبي البهو . وحين وصلنا إلى الصالة الرئيسية وقعت أنظارها على بعض العاهرات يصلين .

شخر خو في رقة :

ـ انظر كيف يركعن في ورع وتقوى ! ماذا يحاولن أن يكتشفن ؟ كيف تسير أمورهن بصورة طيبة ؟

شعرت بالانشراح أيضاً . لكن رونغ بدت مكتئبة اسيانة .

ـ أتحسبان أن فتيات الشوارع لا يملكن روحاً ؟

فيم طرحت هذا السؤال ؟ لم أفكر في ذلك السؤال ، ولن أفكر فيه مستقبلاً . لقد وجدت تصرفهن مسلياً لا أكثر ولا اقل .

قال خو :

ـ ربما كان المال ، بالنسبة إليهن ، هو كل شيء .

تضايقت :

ـ هه ! انتما لا تفقهان شيئاً عن أحاسيس النساء .

من تراه يعرف إذن أحاسيس النساء ؟ إنهن مخلوقات معقدة مفرطة الحساسية .

قلت ، وأنا راغب في جعلها تفصح عن رأيها :

ــ حسناً . نحن لا نفقه شيئاً . فاجعلينا نرهف أسماعنا إلى حديثك . وباعتبار أنك امرأة فأنت تعرفين عما تتحدثين .

نظرت في عينيّ ، وقد اربدّ وجهها بغمامة خريفيــة . واختفت أشعة الشمس المشرقة . كان الفصل خريفاً بالنسبة إليهــا .

فيم جاء الخريف بمثل هذه السرعة ؟ أين كان الربيع ؟ هل رحل الربيع نهائياً ؟

شرعت تقول :

ــ إنها قصة طويلة . ويحتاج سردها إلى أيام عديدة ، ورغم ذلك فأنتما لن تفهما . سأقول لكما شيئاً واحداً : إحدى صديقاتي العزيزات من أيام الدراسة الابتدائية عاهرة الآن . أعرف أنها امرأة طيبة جــداً .

تحداها خو قائلاً :

ــ كيف تعرفين ؟ الناس يتبدلون . الناس الطيبون قــد يصبحون فاسدين .

تذكرت فجأة أن خو ، مثل شوبنهــور وستريندبرغ ، يكره النســاء . ويقول إن امرأة نكثت عهدها معه ، رغم أنــه لا يقرّ هو نفسه بهذا الأمر .

استرسلت رونغ قائلة :

ــ صديقتي تلك إنسانة طيبة ، ولكنها ضحيــة كبرياء والديها . وقد كتبت لي بذلك مؤخراً .

كان هذا الخبر جديداً عليّ . فهي لم تحدثني به مــن قبــل قط .

قد تكون صديقتها امرأة طيبة،لكن ماعلاقة هذا الموضوع

بي ؟ إن رونغ لاتبرح تحفظ كثيراً من الأسرار عني. كنت حسبت أني استحوذت على قلبها وروحها . ويبدو أني كنت مخطئاً .

تبعت رونـغ وخو وقد غمرتني الغيرة . كنت غيران من تلك الأسرار التي تصونها عني .

التقينا جماعة من الطلاب وعدداً من النسوة . ابتسم الرجال لدى رؤية النساء . وكانت الغيرة تنهش قلبي فلم استطع ان اغتصب ابتسامة .

وصلنا إلى غدير ، فرفض خو الاستمرار في السير . واقتعـد صخرة .

خاطبتني رونغ قائلة :

ـ فلنتسلق هذه الهضبـة .

وبدت كلماتها وكأنها أمـر .

اجتزنا نفقاً وتسلقنا عدداً من الدرجات ، ورونغ تمشي أمامي . تسلقت بسرعة عجزت معها عن اللحاق بها .

في منتصف طريق الهضبة وصل الممر إلى نهاية . وقفنا فترة تحت جناح من الإسمنت مقام حديثاً ، ثم جلست على صخـرة .

على مهلة مسحت جبهتي المنداة عرقاً بمنديلي .

رنّ صوتها مثل جرس فضي في الربيع :

ـ تبدو متعباً ، أما أنا فأشعر أني على خير مايرام !

وتراقصت على وجهها ابتسامة طفولية .

وهكذا حلّ الربيع أخيراً !

رفعت وجهي الحار صوب السماء الزرقاء ، والريح المتلاعبة . فرأيت عينين بجاوين وحاجبين اهيفـين . كانت العينان البجاوان تشعان بالحب ، حب الربيع وحب الجنوب .

نادت :

ــ لــين !

التقت عينانا مــن جديــد . فتننت بعينيهــا الكبيرتين وحاجبيها الرقيقين . ولكن ملامحهــا ظلت تتبــدل بسرعة ، ربيع وخريف يتناوبان في ومضة خاطفة .

سألت على حين غرة :

ــ لين ، أما برحت تحبني ؟ تحبني كثيراً كغابر الأيام ؟

كان صوتهامثل نغمات ناي في ليلة ربيعية، وعيناهايغلفهما سديم وتنذران بالمطر .

لم تكن لديّ فكرة عما إذا كان ذلك سيكون مطراً ربيعياً ام خريفياً . وكان فؤادي يرتعش .

كان ذلك سؤالاً انتويت أن أطرحــه ، ولكنهــا أحبطت نيتي . وهكذا كان تفكيرنا واحداً رغم أن أحدنا لا يعرف مــا يجول في فكر الآخر . واتيحت لنا الآن فرصة التضييق على بعضينا . ومهما يكن الأمر ، فقد ترددت خشية من أن يهب ضباب جديد فيخفي مشاعرنا الحقيقية .

ــ رونغ ، أنت تعرفينني ، وتعرفين قلبي . أنا لم أكذب أبداً . أنا أحبك ، أحبك أكثر من أي وقت مضى !

ارتجف صوتي . لم أتحدث بسرعة ، من جراء قلقــي وخشيتي ، كيلا تسيىء فهمي .

اندفعت جميع الدماء إلى وجهي . شخصت في عينيها منتظــراً . . .

واستحثني قلبي :

ــ لا تنتظر!خذها في ذراعيك وقبلها!حدثها عن شكوكك وقلقك . أخبرها انك تريد معرفة جميع أسرارها . أخبرهــا

كيف جعلتك تشعر طوال هذه الأيام القليلة الماضية .

كانت يداي ترتعشان ، ولكنهما لم تتحركا من مكانهما .

نظرت إليّ في صمت .

استفززت نفسي :

— هي تعرف الآن ! أسرع !

وعندها لمحت المطـر في عينيهـا البجاويـن المتمعتـين باكتئاب . مطر . مطر خريفي ! فتبلـّل قلبي .

— رونغ ، انا أحبك ، وسأظل على حبك ! ولا استطيـع أن أعيش من دونك . أتمنى ان أشق قلبي وأطلعك على مكانك فيـه .

تحدثت وكأنني ألقي قصيدة ، وأحسست اني قلت كل ما يجب أن يقال . والحقيقة أنني أسقطت الشيء الأكثـر أهميـة .

طفحت عيناي دموعاً — انهماراً صيفياً . وخيـّل إليّ اني سمعت رعـداً .

— لا تترددي ، يا رونغ . فقد وهبت لك نفسي كلهـا. من اجلك أضحي سعيداً بكل شيء .

لم أستطع أن أرى غير عينيها ، أو أسمع غير صوتها .

— أواثق أنك لن تندم إذا ضحيت بكل شيء من أجلي ؟

كان هذا صوت جرس فضي يسبـح في ليلة خريفيـة ماطـرة .

ارتعش قلبي مجدداً وأنا افكر ان الخريف رجع مـن جديـد .

— كلا ، لن أندم على ذلك . الحب الحقيقي لا يعـرف نـدمـاً .

وكان ما اردت أن أسألها إياه ، من دون أن أجرؤ عليه، هو التالي : « فيم تظلين تترددين ؟ هل تبدل شيء في قلبك ؟ »
قالت :
ــ اصدقك .
وسكتت .
خطر لي أني نجـوت .
كانت تثق بي وتحبني ، هكذا هي الأمور . لكن ، فيـم تراها صمتت على حين فجـأة ؟
نهضت ، ارنو إلى وجهها تحت أشعة الشمس . كانـت الدموع في عينيها البجاوين تتلألأ . واختفت السحب ، واطل الربيع مرة اخرى .
يا للتبدل السريع الذي يطـرأ عـلى أحاسيس الفتـاة ومشاعرها !
ــ اصدقك . لكن إذا تبدل الحب في قلبك فيما بعـد فلسوف أقطع عنقي مثل شقيقك .
هبت على قدميها وابتسمت لي . رنّ الجرس الفضي مجدداً ، لكنني لم أكن واثقاً ما إذا كان الربيع أم الخريف .
وهكذا فهي لاتبرح تذكر شقيقي الذي نسيته منـذ زمـن .
قالت :
ــ فلننزل كيلا نترك خـو ينتظرنا طويلاً .
لحقت بها للانضمام إلى خو عند الغدير . ولم يعـد ثمة شيء من العبرات في عينيها .

٧

تناولنا طعـام الغداء في غرفتها .

ودعتني بعد ذلك وخو ، ثم أغلقت البوابة .

مشينا في الظلمة وأنا أحمل باقة الزنابق في يدي .

النجمات ، بيض وخضر وحمر ، تلتمع على صفحة السماء السوداء .

كان ثمة عدد قليل من الناس في تلك المنطقة الهادئة تحت أضواء مصابيح الشارع الشاحبة .

ضغطت الأزهار على وجهي فأنساني عبيرها ضناي .

سألني خو فجأة :

ـ ماذا قلت لها في جنوبي بوتيو ، يالين ؟ بدا كلاكما وكأنكما ارسلتما الدموع .

رفعت راسي عن الأزهار :

ـ كان مجرد حديث عاشقين .

ـ فيم البكاء إذن ؟

ـ لم نبك حقاً . ارسلنا قليلاً من عبرات . أحاديث العشاق تؤدي إلى الدموع غالباً .

ـ ربما ما كان يجب أن أقول ذلك . . . لكنه إذا رحتما ترسلان الدموع في مثل هذه الفترة ، فإن حبكما لن يؤول إلى خاتمة سعيدة . شعرت بهذا منذ زمن بعيد .

شعرت بالضيق ، فقلت :

ـ لم أتوقع أن أسمع شيئاً طيباً من رجل يكره النساء مثلك . افلست معجباً برونغ أيضاً ؟ انت لا تعرف شيئاً عن الحب ! ليس هنالك حب من دون دموع .

ـ كلا . لقد شعرت بشيء خاطيء في قضيتكما هذه . شعرت بها بصورة غريزية . انا لا ادسُّ فيها إصبعي ، ولكنني واثق منها تماماً .

كان ذلك أشبه بحوض ماء بارد ينصب على قمة راسي .
رغم اني لم اصدقه كنت أفتقد الدليل على أنه عديم الخبرة في شؤون الحب .
ـ انت لا تفهم على الإطلاق . انت متحامل جداً . انا احبها وهي تحبني . وليست هنالك قضية !
قال خو ، وهو يشير فجأة ناحية السماء :
ـ انظر !
سقط ضوء من السماء واختفى في ومضة عين . وخيل لي أني سمعت صفرة خافتة .
خاطب خو نفسه ، وهو لا يبرح يبحث عنه في الظلمة :
ـ نجم يهوي .
واضاف في حنو كمن ينده باسم حبيبة قلبه :
ـ نجم ضائع .
وعاود الحديث في زخم :
ـ أنا واثق من ذلك .
بالنسبة إلي رنت كلماته مثل قرع جرس جنازة . فأحسست بالخوف فجأة .
غطيت وجهي بالزنابق . ذكرني عبيرها البارد برائحة وسادتها .
انها تخصني . ولا ينبغي أن أخسرها مهما كانت الأمور .
ودعت خو وعجلت عودتي إلى بيتي .
نبح كلب الجيران عند البوابة حين سمع أصداء خطواتي . وما أن اقتربت وعرفني حتى أفلت هارباً ، وهو يهز ذيله .
حملت الأزهار إلى غرفتي ، وابدلت الماء في الإناء ووضعت

الزنابق فيه ، ثم وضعت الإناء على المنضـدة الصغـيرة إلى جانب سريري .

استلقيت في سريري أحدق في الأزهار .

بدت رخوة رغم أنها لم تذبل . وخطر لي أن المياه العذبة ستبث فيها الحياة من جديد .

لسوف أعتنى بهذه الزنابق عناية فائقة لأنها ترمـز إلى حبنـا .

٨

آب ربيع حبنـا ! عشت أياماً عديـدة سعيـدة صفت السماء فيها مـن جديد رغم انهمار بعض أمطار الخريف .

بعثت إليّ صورة فوتوغرافية كبيرة لها . انزلت إطـار الصورة عن الجدار وغطيت جانيت غاينور بصورتها .

وهذه هي الآن من تنظر إليّ بدلاً من جانيت غاينور ، وتبتسم لي . إنها ابتسامة تماثل الربيع عذوبة .

شعر أسود مترف ، وحاجبان أهيفان ، وعينان بجاوان ساطعتان ، وشفتان عذبتان تتقوسان في ابتسامة .

ـ أحبـك . . .

صوت يشبه رنين الجـرس تبعثـه هـاتان الشفتان المتباعدتان . إن عينيها الساطعتين أضاءتا كينونتي بأسرها .

اتراني أحلم ؟

همست في نفسي كمن يتلو قصيدة :

ـ رونغ ، أحبك ، وسأحبك إلى الأبد ، أكثر من أي شيء في الوجـود .

وحين تكون أمامي فلسوف أخاطبها قائلاً : « أحبك » .

وحين أكون وحيداً في غرفتي فلسوف أقول أيضاً : « أحبك » .

كان يجب أن اعرفها حين كـان شجـر اللونغان مزهـراً . أسرني هواها حين اثمر الشجر . وهذه الأشجار الآن مزهـرة من جديد وانا لا ابرح اتمتم مخاطباً صورتها : « أحبك » .

أيها الضعيف الضعيف ! وغطيت وجـهي وغرقت في كنبتي .

رجعت الى ذهني انتقادات خو :

ـ انت أسير العاطفة .

تمنيت لو اني أسيرها . حلمت بأن أصير أسير العاطفة . لو كنت كذلك غدت رونغ لي منذ زمن بعيد بعيد .

كيف يمكن أن أصبح أسير العاطفة ؟ أسيراً محظوظاً !

وشعرت اني أفقد ذهني .

٩

كانت البرقية الملقاة في زاوية مكتبي مجعدة . ملستها من جديد حينما كنت أصنف كتبي .

تلقيتها منذ أكثر من مضي أسبوع ، ورغم ذلك لم أبعث إلى البيت رسالة استفسر فيها عن التفاصيل .

لقد نسيت شقيقي الوحيد بسبب من رونغ . كان حبي كله وقفاً عليها ولم أبق له شيئاً من هذا الحب . لقد أحبني كثيراً وامضينا اغلب فترات طفولتنـا معاً . وكـان يكبرني بعامين فحسب .

شرعت الآن أفكر فيه ـ بعيد أكثر من أسبوع من وفاته .

جلست أخط رسالة لشقيقتي الصغرى أسألهـا لمـاذا انتحر وكيف ، وكيف هي الاحوال في البيت منذ وفاته .

زحفت الشمس إلى الغرفة عبر النافذة المفتوحة . في الخارج كانت الفراشات ترفرف حول الأزهار . وكان النحـل

والذباب يتراقص في الغرفة .

ترنح فؤادي وأنا اكتب .

رنت أصداء نغمات كمان كئيبة غير بعيد عني . أعرف أن عازفة الكمان فتاة ما أكثر ما كانت ترتدي ثياباً بيضاء . كنت اراها مراراً جالسة في شرفتها حين مروري . كانت تبدو مريضة مزمنة . وإلا كيف لا تخرج ، في مثل هذا الجو البديع، فتاةٌ في ريعان العمر تتجول أو تستنشق عبير الياسمين في الحديقة ، أو تراقب النجمات في البحر ؟

سطرت هذه الأمور كلها في الرسالة .

نبح الكلب ، وصرّت البوابة ، وسمعت صدى حذاء جلدي . عرفت من كان في طريقه إليّ .

ــ لين !

ماكان أنقى رنين الجرس الفضي في هذا اليوم الربيعي الفتان !

دخلت تلبس قميصها الزهري وتنورتها السوداء القصيرة، وعيناها تتألقان ، وابتسامة ساحرة تتماثل على صفحة وجهها البيضوي .

وضعت ريشتي وطويتُ الرسالة .

قالت باسمة الثغر :

ــ عرفت أنك في البيت . لمَ لَمْ تجيء لرؤيتي ؟

ــ كنت أكتب رسالة .

ونهضت على قدميّ .

ــ لمن ؟

ــ لشقيقتي الصغرى .

أنتأت شفتيها :

ـ لست اصدق . أرنيها .

ـ خذي .

نشرت الرسالة وأعطيتها إياها .

جلست إلى المنضدة .

رحت أراقب وجهها وهي تقرأ . اغتمّ مرة أو مرتين ، ثم أشرق من جديد .

ـ كتابة حلوة . تبدو وكأنها قصة .

ابتسمتْ ، وجعل قلبي يغني .

ـ فيم لا تكمل كتابتك ؟ هل اقاطعك ؟

كيف يمكنني أن أكتب رسالة وهي مقيمة إلى جانبي ؟

ـ تقاطعينني ؟ ابداً ! عرفت أنك ستحضرين فشرعت أكتبها وأنا أنتظر قدومك . سأنهيها هذه الليلة . ولن أضعها في البريد إلا في الغداة .

ـ هل تلقيت رسالة من البيت ؟ أية أنباء ؟

ـ كلا .

تنهدت في هدوء ، ثم أدارت عينيها إلى كتبي .

فيم تنهدها ؟ أفلم تكن تبتسم ابتسامة مشرقة قبل قليل ؟

تطلعت في وجهها . شرع الظل المرتسم فيه يتلاشى . وكان لايبرح أرجاً بعبق الربيع .

صلّيت :

ـ أرجو أن يكون شعورها على غرار نظراتها !

اقترحت فجأة بعدما تبادلنا كلمات قليلة :

ـ لين ، هل نذهب لرؤية أحد الأفلام ؟

ـ أي فيلم ؟ أليس الوقت متأخراً كثيراً ؟

نظرت في ساعتي . وداعبت الشمس الربيعية رأسي . وظلت النحلات تطنُ حواليَّ .

ــ فيلم غريتا غاربو « قصة حب » . الناس يقولون إنها رائعة .

ــ فيلم غاربو ؟ لماذا تحبين افلامها ؟ ليست هي من نوعية يحسن بفتاة مشاهدتها .

ــ إنها الممثلة الحقيقية الوحيدة بين نجوم الأفلام . وتمثيلها بالغ العمق .

ــ فتاة مثلك يجب ان تذهب لمشاهدة نورما شيرر أو جانيت غاينور . أما غاربو فيفضل أن تتركيها للنساء اللواتي بلغن منتصف العمر يتمتعن بها .

ــ انت لا تفهم ! أتحسب أن نورما شيرر هي نموذجية بالنسبة إلينا ، نحن الفتيات ؟ هذا يبعث على السخرية مثلما تنظر بعض الفتيات إلى رامون نوفارو باعتباره الرجل المثالي .

كففت عن المناقشة معها ، وانطلقنا من فورنا .

وفيما أنا أحادثها في الطريق جعلت أهامسُ نفسي : يالها من فتاة غريبة ، مولعة بشرب النبيذ الاحمر كالدم ومشاهدة أفلام غريتا غاربو .

١٠

كانت السينما الخانقة سيئة الإضاءة مزدحمة تعجُ باللهجة المحلية الثاقبة وضحكات النساء وصراخ الأطفال .

واطفئت الأنوار وهدأ كل شيء .

ظهر على الشاشة أشخاص وأفعال ، شرائط أخبار وتسليات ، وقصص غرام .

تلاشى العالم من حوالينا،ورحنا نحلم وعيوننا مفتوحة.

انحنيت عليها وانحنت عليّ .

شباب ، وهيام ، وضوء قمر ، وحب عميق ، واثنان في ريّق العمر ، وشاب آخر ، والمثلث الأبدي ، وأب قاس حقود ، ومال ، وسمعة ، ونجاح ، وتضحية ، وخيانة ، وعمل في مصر ، وسنوات طويلة في بلد استوائي .

فتاة يتيمة ، وأخ مدمن ، وحب أول ، وعاشق وفيّ ، وايمانات مغلّظة ، وفراق فجائي ، ومطر مدرار في ليلة مقمرة ، وقلب مجروح عميقاً ، وزواج من دون حب ، وخداع الزوج وجريمته ، وانتحار وشرف ، وسوء تفاهم اجتماعي ، ولوم الأخ وحقده ، وحياة ترمل ، وسر دائم ، وتطواف في الخارج ، وغفران ، ومرض الأخ ، والعودة إلى البيت ، وموت الأخ ، وندم طوال الحياة .

لقاء بعد فراق طويل ، امرأة أخرى ، حياة جديدة ، لهيب مضطرم ، وداع عجول ، مرض ، ورد ، لقاء في مستشفى ، اعتراف بالحب ، المثلث الأبدي ، فرار ، عزم على الموت ، موت في حادث مرور .

... تنهد الناس في لطف واضيئت الأنوار . وأسدلت الستارة الزرقاء . لم يحدث شيء . ما برحنا في الضين ، وحلمنا حلماً أوروبياً لا غير .

بعدما جففت عبراتي نظرت إلى عينيها النديانتين بالدموع .

امسكت يدي ، وضغطت جسدها عليّ ونحن نشق لنفسينا طريقاً .

حنت رأسها وقد جنحت الى الصمت فترة طويلة .

قالت في مرارة :

ـ هذا المجتمع يضطهدنا نحن النساء .

فأجفلني هذا التصريـح .

ومضت في ذهني بعض لقطات من الفيلم : المرأة تستيقظ في سرير مرضها فتجد أن الورد اختفى . تترنح خارج الغرفة بعد جهد جهيد فتعثر عليه . تندت عيناي بالدمـوع حينما شاهدت تلك المشاهد المؤثرة . وضعت رونغ ، الجالسة إلى جانبي ، رأسها على كتفي . سمعتها تـردد مرتين كلمـات بطلة الفيلم :

ــ أزهاري ! أين تخبئون أزهاري ؟. . . أريدك وحدك !

أحسست أني فهمت رونغ الآن. فنزف قلبي من أجلها . حياة النساء تجعلنا نذرف الدموع دائماً . كانت رونغ على حق حينما قالت إن غاربو ممثلة عظيمة .

لكن ، فيم سألت رونغ : « أين تخبئون أزهاري ؟ » . إن أزهاري إلى جانبها تماماً .

ــ رونغ ، هذا كان فيلماً ، وليس شيئاً حدث حقاً . مثل هذا الشيء لا يمكن أن يحدث في الحياة الحقيقية .

اغتصبت ابتسامة ، لكنها متكلفة لأنني رغبت في الابتسام وليس في التنهد .

أجابت في أسى :

ــ أفلا تعرف أن هنالك كثيراً من أمثال هذه الأمور ؟ حياة المرأة دائماً تعيسـة .

ــ رونغ ، هل نتناول وجبة غربية ؟

ــ كلا . لا أشعر بميل إلى الطعام. أريد العودة إلى البيت لأبكي .

كانت على شفا الانفجار بالبكاء .

أردت أن أسأل :

ــ رونغ . أفما عدت تحبينني ؟ لماذا تودين العودة إلى البيت والبكاء في حين انني مجنون بك هياماً ؟

لم أقل ، على اية حال ، كلمة من هذا بل بللت عيني بكل هدوء . وتوجّع قلبي عليها وعلى نفسي .

قلت أخيراً :

ــ سأرافقك إلى البيت .

ــ كلا . لا اريدك أن تفعل ذلك . فلأرجع وحدي .

إنها المرة الأولى التي ترفض فيها رفقتي . لم أستطع الامتناع عن التفكير في الجرس الفضي . ولكنه صمت الآن .

قلت في نفسي :

ــ بدأت تتعب منك ! انتظر . سيحين وقت تهجرك فيه .

وأصلحت حديث نفسي على الفور :

ــ كلا . هي لن تفعل ذلك . فهي ليست من ذلك الطراز .

لكن هذه الكلمات لم توقف أوجاع قلبي . أردت أن أسأل مرة أخرى : « أما برحت تحبينني ؟ »

شخصت إلى قميصها الزهري وتنورتها القصيرة السوداء ، وخفضت رأسي .

أحببتها أكثر من أي شيء آخر في الوجود . ولم أكن أستطيع الحياة من دونها .

لم أحدثها مزيداً . غير أن عينيّ طاردتا هيئتها المتقهقرة . وعبرت عيناي عما لم أجرؤ على البوح به ــ لكن ليس في صوت يمكن أن تسمعه .

لحقتها إلى بيتها . كنت قريباً منها بحيث شاهدتني من دون ريب .

قلت في نفسي : لقد أوصلتها إلى بيتها على أية حال .

ولم أكن شجاعاً بحيث انادي أسمها أو أقول شيئاً يسترضيها.

قلت مسترخياً عند البوابة الخضراء : « لسوف تكون على مايرام الآن » . ومضيت إليها .

ــ لا تغضبي ، يارونغ . سوف تشعرين بالتحسن بعد راحة قصيرة في حجرتك ... كنت سعيدة حينما خرجنا إلى السينما ، وهذه انت رجعت إلى البيت منقبضة . هل أغضبتك ؟ أخبريني صراحة .

امسكت انفاسي ، منتظراً ردها .

قالت ، وقد ادارت لي ظهرها :

ــ دعني ارتاح قليلاً !

وقفت عند البوابة ووجب عليَّ أن أقف هنالك أيضاً ، أرنو إليها وهي ترنو إلى الأرض .

ــ إذهب إلى بيتك الآن .

قالت هذا وفتحت البوابة ودلفت منها .

أغلقت البوابة واستندت إليها بظهرها .

ناديتها من الخارج :

ــ رونغ .

فما ردت أو تحركت .

كانت ستبقى هنالك زمناً طويلاً مثلما وقفت انا . هذا ما جال في ذهني . وكانت الراحة هي ما تحتاج إليه .

ــ ائذني لي بالدخول ، يارونغ . أريد ان أخبرك شيئاً .

ــ تعال غداً . دعني أرتاح قليلاً هذا النهار . لا أريد ان أرى احداً .

لم تدر راسها ، وعرفت انه ليس ثمة أمل .

قلت في صوت مفجوع :

ـ سأذهب إذن .

خطوت مبتعداً ، وخطواتي تتردد على الأرض بثقل .

جال في خـاطري :

« لسوف تلتفت لتنظر إليَّ » .

« لسوف تفتح البوابة وتخرج » .

« لسوف تناديني إليهـا » .

وهمست لنفسي :

ـ تمهـل قليـلاً !

« استدر والقِ نظـرة ! »

« إرجع وتوسل إليها مـرة أخرى ! » .

ابطأت خطواتي ونظرت من فوق كتفي بين حين وحين . من دون فائـدة .

كانت البوابة مغلقة . والباحة خاوية . واختفى القميص الزهـري والتنورة القصـيرة السوداء . لـم يخرج احـد ليناديني .

استدرت عازماً على العودة،وبعدما مشيت عدة خطوات قفلت ناحية البيت .

« ماذا لو رآني صديق ؟ أفلن أبدو مجنوناً ؟ »

« يحسن أن أعـوذ إلـى البيت . هنـالك غـداً عـلى الـدوام » .

مشيت طوال الطريق إلى البيت فما استدعتني .

نسيم العشية المتلاعب حول وجهي حمل إليَّ روائـح الفسـق الحلوة . كانت الفتاة المرتدية البيـاض جالسة في شرفتها . وقف كلب جاري على قائمتيه الخلفيتـين عنـد البوابة ينبـح .

رفعت بصري فلمحت هلالاً فضياً في السماء ونجمات قليلة ، بعضها براقة وأخرى كابية .

دلفت إلى غرفتي ، ناسياً جوعي،وأخرجت موجز الفيلم ومزقته إرباً .

التهبت غضباً :

ـ إن غاربو مجرّد نذيــر !

كانت الزنابق في الإناء متهدلة وقد ذبلت عروقها .

تلك الزنابق رمــز حبنـا .

اردت ان أبكي ، أن أبكي على الزنابق .

١١.

« أيمكن أنها لم تعد تحبني ؟ »

« كلا . فهي لم تقل هذا القول أبداً » .

« أما برحت تحبني على مألوف عادتها ؟ »

« إذا كان ذلك حقاً ، ففيمَ تصرّفت على هذا الغــرار اليــوم ؟ » .

« أهي دلالة على الحب أم لا ؟ »

كنت مستلقياً في سريري أطرح على نفسي هذه الأسئلة وأجيب عنها ، ووصلت إلى نتيجـة :

« أنت لا تفهم نفسية النساء » .

« كانت تريدك أن تدخل إلى البيت » .

« حين تقول فتاة إنها لا تحبك فهي تقصد العكس تماماً . حين تقفل الباب دونك فمعناه أنها تريدك أن تدخل . حينما تقول إنها تريد أن تبكي وحــدها فهي تريــد أن تبكي على كتفك » .

« ما هي المــراة إن لم تكن خجلى ، غامضة ، مخادعة ؟»

« أيها الضعيف الضعيف ! »
حين ضجرت من الاستلقاء هنالك وثبت على قدميّ .
قررت أخـيراً :
ــ سأبتاع صورة غريتا غاربو غداً وأعلقها على الجدار .
فإذا واليت النظر إليها قد أصل إلى فهم النساء .
أضأت النور لألقي نظرة على صورة رونغ .
لم يكن هنالك ابتسامة على وجهها .
أدرت لها ظهري . قلت في نفسي .
ــ يحسن أن أكمل تلك الرسالة . أكتب الى شقيقتي الصغرى واحادثها عن شقيقي الميت .
وفكرت وانا في حال يرثى لها : « افتقده بعدما أهملتني حبيبة قلبي » .
واستمررت أنهي تلك الرسالة غير المنتهية .
بدا أن ذهني كفّ عن العمل ، فلم أعد اذكر ما رسمت أن اقـول .
ذرفت الدموع وانا اكتبه . لست أدري فيم كنت نزاعاً إلى البكاء ذلك النهار .
شعرت أن لديّ فكرة غامضة عن لماذا انتحر شقيقي .

١٢

في بكور الصباح التالي ذهبت إلى بيتها وقد خطر لي أن أحداث النهار المنصرم ولته وانتهى أمرها .
رأيتها خارجة من البوابة الخضراء تلبس ثوباً أزرق .
ابتسمت لي عن بعد .
ورنّ الجرس الفضي :
ــ لـين !

كان وجهها جميلاً مثل صباح ربيعي .

ــ حسبتُ انك لن تأتي .

ــ لم لا آتي ؟ أخبريني لماذا تجاهلتيني على غير انتظار؟

ابتسمتْ :

ــ حسناً . هذا حدث البارحة .

ــ واليوم ؟ هل تفعلين الشيء ذاته ؟

ــ إنسَ الأمر كله ! وعلى أية حال ، فقد كانت خطيئتي .

ــ إلى اين تذهبين الآن ؟

ــ كنت ذاهبة أعتذر لك .

كان صوتها الودود اشبه بالموسيقى في اذني .

أدفأ قلبي ، فانتعشت روحي من جديد .

قلت في نفسي :

ــ إنها تحبك . إن لك ذهناً شكوكاً !

ــ هل نذهب إلى غرفتك ام إلى مكان آخر ؟

ــ هل ترافقني لشراء بعض الحاجيات ؟ مثل هذا الصباح الربيعي مثالي للقيام بجولة .

كانت طريقنا تحت أشعة الشمس الذهبية ، والأشجار الخضراء ، وعبير الأزهار ، وأغنيات الطيور ، والصخور الكبيرة .

كان ثمة عدد كبير من الناس عند أكشاك الفواكه ، والمقاهي ، ودكاكين بيع السمك . لم يكن ثمة أشجار أو أزهار هنالك . لم يكن ثمة غير حشود من الطبقة العاملة .

عثرت في زقاق ضيق على مكتبة تبيع كتباً مستعملة .

مشينا زمناً طويلاً .

ـ ما ابعث ذلك على السخط ! مثل هذا المكان الكبير ، ولا تستطيع فيه أن تشتري صورة لغاربو .

وهكذا فهي راغبة في شراء صورة أيضاً .

ـ هل نعبر الطريق إلى الطرف الآخر ؟ لا بدّ أن يكون ثمة شيء منها هنالك .

كان ثمة صور هناك. اشترت صورتين واعطتني واحدة.

إذن هذه هي صورة غاربو التي مثلت في «قصة حب»، وأدفقت العبرات من عيون كثيرين من المشاهدين .

إنها غاربو نفسها بشعرها الكث الطويل وملامحها المكتئبة وجبهتها العالية ، هذه التي أرغم حديثها اللامبالي الناس على البكاء، وكانت عيناها تبدوان وكأنهما اغتسلتا بمطر الخريف. بدت مثلما ظهرت عليه في الفيلم حين خرجت من العنبر تحمل باقة من الورد .

ـ النظر إلى غاربو سيساعدك على فهم عظمة النساء . نحن النساء ، اللواتي اضطهدهن المجتمع وازدراهنّ ، نناضل ونعاني ونتدمر . هذا هو مصير النساء اللواتي ينظرن إلى الحب باعتباره حيواتهنّ .

هذا ما قالته لي حين أعطتني الصورة .

ذكرتني صورة تلك النجمة السويدية بالسيدة الفتية في « قصة حب » . فأجبت: « مستحيل » .

تساءلت عما إذا كان هنالك مثل هؤلاء النساء حقاً .

تناولنا الغداء في أحد المطاعم .

وقضينا النهار بطوله معاً .

حين غادرتها تلك العشية كنت أحمل صورة غاربو في يد وفي اليد الأخرى بعض الورد الذي أعطتنيه .

كانت ليلة ساكنة . الهواء لطيف . الشارع فضي اللون أبيضه تحت شعاعات القمر . الأشجار تهزها الريح. واهتزاز وتري حزين من كمان يتأرجح بعيداً بعيداً . وصوت سوبرانو يغني « العاشق الحالم » .

شعرت أني سكران وأنا أستحم بضوء القمر اللطيف في تلك الجزيرة العابقة بشذى الورد .

هنأت نفسي حين وصلت إلى بيتي .

أنت مجدود لأن امرأة تهواك .

١٣

وصلت رسالة شقيقتي الصغرى أخيراً . كانت طويلة ، رغم وصولها متأخرة قليلاً .

كانت تقول إن شقيقي انتحر بسببٍ من الحب .

عشق ابنة أحد الأقرباء. وكان حبهما الأول على غرار ما شاهدنا في الفيلم .

وفي الوقت ذاته أحب شاب آخر تلك الفتاة .

غير أن المال ، والوضع الاجتماعي ، والشرف . . . حالت بين شقيقي وبين الفوز بها . فقد رفض أهلها الطلب الذي تقدم به لخطبتهـا .

وخلّف هـذا الحب الشاعري الأول جرحاً عميقـاً في روحـه .

تزوجت الفتاة رجلاً آخر ، في حين أرغمه جدي عـلى الزواج من فتاة أخرى لم يكن يحبها .

ولم تنفع الالتماسات والصدود في شيء ، فانجـرف مـع اليأس .

وحزّ في النهاية عنقــه .

وهكذا وضع حداً لحياته القصيرة .

أحدثت وفاته رعباً أكبر من العبرات والرثاء .

دفن إلى جانب ضريح والديّ ، محاطاً بعديد من أشجار السرو . وزرعت عدة شجرات دراق صغيرة أمام ضريحه . لكنها لم تحمل ثمراً رغم أن تفتحها الزهري في الربيع جميــل مثل وجنتي حبيبة القلب .

أخبرتني شقيقتي أيضاً أنه ترك وصية أخيرة ، وسوف ترسل لي فيما بعد صورة عنها .

ثار قلقي بشأن قراءتها ، فقد كنت واثقاً من وجود أشياء فيها ينبغي معرفتها .

وكانت عيناي تفيضان بالعبرات

لم ابك بخصوص انه كان شقيقي وأنــه أحبني مــرة فحسب ، بل لأنه كان أسير نكوث فتاة عن عهدها له .

في العصر الذي عاشت فيه غاربو كان لا يزال ثمة رجــل مثل شقيقي هجرته النسـاء فأوصلنه إلى الانتحار ! ولم أكن أتوقع ذلك .

كان هذا يغاير ما قالته رونغ . ليس النساء وحدهنّ في هذا المجتمع ينزل بهنّ قدر بائس . إن شقيقي ، مثلاً ، قد حــرم من ربيع حياته .

الربيع ! لم لا يستطيع الجميع أن يتمتعوا بالربيع ؟

تطلعت غاربو إليّ في حزن بدلاً من الابتسام .

الديها ما تخبرني به ؟ هل ستقول إن قدر النساء أكثر بؤساً من قدر الرجال ؟

« رونغ ، رونغ ، أعطيني جواباً ! » .

١٤

لم تكن رونغ في منزلها حين عرجت لرؤيتها في الصباح . كان بابها مفتوحاً ، وثمة مذكرة على المنضدة :

« لا تنتظرني ! سأخرج لرؤية صديقة ولا اعرف متى أعود . تركت علبتين من الحلوى على المنضدة من اجلك . جاءتاني من أهلي . اذكرني وانت تتذوقهما . إرجع وانتظرني في بيتك . سآتي إليك هذه العشية وفي مقدورنا استئجار قارب للخروج إلى البحر ومراقبة النجمات . رونغ » .

قبلت المذكرة قبل أن أضعها في جيبي في عناية .

وبينما أنا آكل الحلوى تمنيت لو استطعت أن اقبل شفتيها لأنهما أشبه بالحلوى . ولكنها تأبى عليَّ أن أقبّل شفتيها كل يوم .

لم أفعل ما طلبت مني . دلفت إلى غرفتها من جديد بعد الغداء وغفوت قليلاً على سريرها . ولكنها لم ترجع حتى ذلك الوقت .

خطر لي أنها قد تذهب إلى بيتي مباشرة . فرجعت إليه . وهنالك غفوت مرة أخرى على سريري .

كان الوقت غسقاً ، ولم تبد أية دلالة على عودتها . حسبت انها لن تجيء .

الليلة مقمرة . ما أروع مراقبة النجمات في البحر برفقتها .

حاولت العثور عليها مجدداً .

كانت قد آبت .

سمعت نشيجاً من غرفتها المظلمة .

لا ريب أنه نشيجها .

أشعلت الضـوء .

الستارة مبعدة جانباً . وهي مضطجعة على السرير تبكي.

جمدت مشدوهـاً .

ـ فيم تبكين ، ياورنغ ؟ أفلم توجهي لي دعوة للذهـاب ومراقبة النجمـات ؟

فما أعطتني مـن جواب .

ـ ما الأمر ؟ ما الذي يبئسك ؟ من أثار اضطرابك ؟

ولا تبرح بصمتها معتصمة .

ـ ماذا جرى ؟ أخبريني ! إن كنت أغضبتك يحسن أن تخبريني ، وعندها أستطيع أن أعتذر . يحسن أن تنفسي عن غضبتك بدلاً من تدمير نفسك بالبكاء .

نشجت :

ـ لست أنت .

ـ من إذن ؟ ماذا يدعونا أن نكتم أسراراً عن بعضنا ؟ أفلم يدفىء حبنا فؤادك ؟ أخبريني ماذا تريدينني أن أفعل ؟ أنا ارغب في تنفيذ أي شيء وكل شيء بالنسبة إليك ، حتى ولـو كان ذلك إعطاء حياتي . تكلمي ، أرجوك !

ـ سوف تعرف ذلك في المستقبل .

رنّ صوتها مثل نغمات ناي في يوم خريفي ماطر .

في المستقبل ؟ ولكنك تثيرين قلقي إلى درجة المـوت الآن !

كنت أعرف أنها تخفي عني سراً . وإذا كنت سأعرفـه مستقبلاً فلم لا تخبرني به الآن ؟

على الرغم من ذلك كله أحببتها وحـرصت عليهـا . واعتبرت حزنها حزني . وكنت أشعر بالأسى كلما بكت .

انحنيت عليها أهمس بكلمات مؤاسية .

حاولت أول الأمر أن أخفف عنها،لكن سرعان ما وجدتني أنوح بمرارة على جميع شكاويّ وأحزاني .

توقفنا عن البكاء أخيراً ، وجعلنا نراقب بعضنـــا بعينين دامعتين . ثم ابتسمنا . لم أعرف لماذا بكيت أو لماذا ابتسمت.

كان الحب أشبه بلعبـــة .

ولكنني شعرت أنني أحببتها أكثر من أي وقت مضى ، وبدا أنها تشعر الشعور ذاته .

ورشفنا قليلاً من الشاي .

حين غادرتها كان الليل قد انسدل . ودّعتني في لطف .

كانت حقاً ليلة جميلة بجميع تلك النجمات المتناثــرة في الســمــاء .

عثرت على الجـوزاء . ثلاث نجمات في الوسط تشكل خطاً قصيراً مائلاً ، وخارج كل من زواياه الأربع تشع نجمــة براقة ، وإحداها حمراء لامعة . هذه النجمات السبع صديقاتي القديمــات . وكنت أعثر عليها دائماً حيثما اتخذت مكانها في القبة الزرقاء بين جميع تلك النجوم الأخرى المتألقة فوق رأسي.

أوه ، يا للنجمات الأزلية !

ورجوت أن يبقى حبنا أزلياً .

١٥

قبيل نهوضي في الصباح ارسلت إليّ أحدهم يحمل رقعة مــن الورق .

« لا تحضر لرؤيتي ! سوف أذهب إلى السوق أشتري حاجيات مع إحدى الصديقات. أرسلت إليك باقة من الزنابق. ضعها قريباً من وسادتك واحلم أحلاماً عذبة وهي إلى جانبك.

وحين تستيقظ ستراني إلى جانبك . رونغ » .

أخذت الزنابق وضغطتها على وجهي . ذكرني أريجها بنوافج شعرها .

همهمت باسمها مراراً ومراراً إلى أن غفوت :

ـ رونغ .

حين أفقت ، جاهلاً الوقت ، شممت عبير الورد .

كانت الزنابق لا تزال قريبة من وسادتي . ولكنها لم تحضر .

استبدت بي نزوة مفاجئة فعزمت أن أذهب لرؤيتها .

ارتديت ثيابي مسرعاً ، وخرجت .

مشيت برشاقة عبر النسيم اللطيف ، والهواء الندي ، وأشعة الشمس البراقة ، وظلال الأشجار الخضراء ، وعبير الورد ، وأناشيد العصافير .

ما أجمل الربيع ! خاصة هذا الربيع الذي حمل إليّ الهوى .

وثبت وضحكت في الشارع . وتنشقت عبير الزنابق ، ودندنت ، رغم بشاعة صوتي ، أغنية « أين هي أغنية جميع الأغنيات » .

وما أسرع أن لمحت بوابة بيتها .

قلت في نفسي : « خفف من خطوك . فهي لا تتوقع رؤيتي . ماذا أقول لها أولاً ؟ » .

« لربما خرجت ، وفي هذه الحال يكون الباب مغلقاً » .

« مع من تراها خرجت ؟ من هي هذه الصديقة ؟ » .

« لربما بقيت في البيت تخادعني . فالمحبون جديرون أن يفعلوا كل شيء » .

وعلى أية حال ، فقد بترت تأملاتي سريعاً .

فتحت البوابة وخرج منها شخصان . ومض أمامي وجهان . وجه رجل ووجه فتاة .

كانت الفتاة رونغ . وكان الرجل في الثلاثين ، سمين الوجنتين خفيف الشاربين . إنه غريب !

ابتعدا عني .

ـ من يكون ذلك الرجل ؟

واندفعت دمائي إلى وجهي .

همست في نفسي ، وقد هببت أطاردها :

ـ خدعتني . إلحق بهما واخلع عنها قناعها !

« من يكون ذلك الرجل ؟ ما هي الصلة بينهما ؟ »

وترددت ..

يجب أن يكون حبيبها . لا عجب إذا راحت تتصرف بغرابة في الفترة الأخيرة » .

وحذّرت نفسي :

ـ كفَّ عن استحماق نفسك .

وقفت ضائع النهى . القميص الأزرق المزيّن بمربعات والبدلة الصوفية الزرقاء اختفيا في أحد المنعطفات .

تركتهما يذهبان بسرعة ، ووقفت هنالك صامتاً لا يندّ عني صوت خشية من أن يلتفتا فيلمحانني .

اقتربت من البوابة الخضراء متماهلاً .

البوابة تبدو ملفتة للنظر تحت أشعة الشمس ، والورد الأحمر والأبيض وراءها .

ونافذتها مفتوحة ، ولكنها محجوبة بمنخل شفاف أخضر وستارة مخرمة بيضاء .

استندت إلى البوابة وأنعمت النظر فيما هو أمامي .
توجّع قلبي ، وقد نهشتـه الغـيرة ، والاشمئزاز ، والوحـدة .
حملقت في البيت بعينين متسعتين .
ما الذي جعلني أفعل ذلك ؟ أفلن أراها مرة أخرى ؟ لـم أعرف الجواب عن سؤالي .
خاطبت نفسي قائلاً :
ـ سأبقى هنا النهار بطوله عند الضرورة إلى أن تعود .
وفكرت :
« حينما أؤوب إلى البيت يجب أن أبكي طويلاً » .
أردت أن أبكي حيث وقفت . فما عدت أستطيع صموداً.
إيك ، أيها المسكين ! فقد خدعتك امرأة .
وجررت نفسي بعيداً .
لم يكن الشارع مشمساً ، ولا فيه عبير ورد ، ولا أشجار ظليلة . لم أكن أستطيع رؤية هذه الاشياء لأن عيني تفيضان بدموع الحـزن .
وبدت طريق الأوبة إلى البيت طويلة طويلة .
ما أن وصلت حتى غرقت على الكنبة وكأنني عائد مـن رحلة مضنية .
ـ لا يستأهل الأمر أن تبكي بسبب من فتاة . فأنا لست رجلاً يُستخفُ به .
ومهما يكن الأمر فإن الدموع ، الدموع العمياء ، تتدحرج عـلى وجهي .
وكان في عينيّ عبرات غزيرة أزرفها !
فجأة تواثبت كلمة « الانتحار » كبيرةالحروف في ذهني.

وفكرت في شقيقي الميت .

« الانتحار هو أفضل انتقام لرجل تكثت بعهده امرأة .

« لكن ، أتراها تعرف لماذا انتحرت ؟

« ربما هي لن تعرف .

« وإذا عرفت ، فما فائدتي من معرفتها ؟ لن أكون واعياً إذ ّاك ، وفضلاً عن هذا فهي لن تحزن عليَّ .

« سأكتب وصية أخيرة مثلما فعل شقيقي .

« لكن الناس قد لا يصدقونني . هي حية وقادرة على الدفاع عن نفسها ، وأما انا فلا استطيع أن أعود من القبر وارد ّ عليها .

« ماذا يفيدني إذا صد ّقني الناس ؟ سيلعنني بعضهم باعتباري أحمق ، ويكتب آخرون عني مسرحية ويقومون بتمثيلها واجتناء المال منها . ثمة عدد كبير من الناس قتلوا أنفسهم لأن عهودهم نكثت ، ولم تعاقب امرأة واحدة نظير ذلك .

« يفضل أن أقتلها وأكون أول رجل يعاقب ناكثة بالعهد .

« ولكنها جميلة جميلة . وحرام أن تموت !

« يفضل ان اقتل ذلك الفتى السمين . وأرى ما إذا كانت تتابع خداعي بعد موت حبيبها .

« ولكنه قد لا يكون حبيبها . فأنا لم أره من قبل . إذا كانت تحبه ففيم تخدعني ؟ تستطيع أن تتجاهلني بكل بساطة .

« لربما تعرفت عليه مؤخراً فحسب .

« لكن ، فيم تراها تهيم حباً برجل في الثلاثين ؟ وأنا لست أحط منه شأناً . فكيف تهجرني بسببه ؟

« قد تكون تحاول الحصول علينا معاً .

« كلا ، فهي ليست من هذا الطراز . الفتاة التي أحبُّ لا ينبغي أن تفعل مثل هذا .

« وفضلاً عن ذلك ، فهما لا يسيران مثلما العشاق يسيرون .

« ذلك الرجل ليس حبيبها .

« وهما لا يتجنبانني عن قصد . فلم لا ألحق بهما وأخاطبهما !

« بلى ، هذا ما يجب عليَّ أن أفعل . وعندها تتضح الأمور جميعاً .

« إنها غلطتي . أفلم تطلب إليَّ ألا أمر ببيتها ؟ فلم لم أصغ إليها ؟

« أنت ، أيها الضعيف الضعيف المرتاب ! »

هذا ما كان عليه قراري .

الزنابق إلى جانب فراشي تبدو مترهلة .

نسيت أن أضعها في إناء ، ولم أصرف عنايتي إلى ما أعطتني .

أسرعت ألتقط الأزهار وأشمها . كانت تفقد عبيرها .

فكرت قائلاً : « سوف تذرف عبرات مريرة إذا عرفت ما فعلتُ » .

بدلت المياه في الإناء ووضعت الزنابق فيه ، راجياً أن ينعشها الماء العذب .

ابتهلتُ :

ــ يجب أن تعيشي كيما ترمزي إلى حبنا الأزلي .

ودخل خو على غير انتظار .

أدهشته ملامحي . سأل :

ـ أكنت تبكي ، يا لين ؟

وبدلاً من أن أعطيه جواباً استدرت أنظر إلى صورة غابور .

ـ فيم كان بكاؤك ؟

ظللت معتصماً بالصمت ، وعيناي عالقتان بصورة رونغ .

جلس على الكنبة :

ـ قد يكون بسبب من الحب ، بسببٍ من رونغ .

واستتلى مكتئباً :

ـ لين ، قلت إن حبكما لن ينتهي نهاية سعيدة .

اجبت غاضباً :

ـ هراء .

ـ أود أن أنصح لك ألا تنظر إلى الحب نظرة جديـة . الرجال لا يعيشون على الحب وحده .

أردت أن أنفجر قائلاً : « يعيشون على المال ، أليس كذلك ؟ » ، ولكنني سكت .

ـ بسبب من الحب أنت تنسى الصداقة . بسبب من رونغ انت تنسى شقيقك ، وهذا ليس عدلاً ، أليس كذلك ؟ وفضلاً عن هذا فإن رجلاً يماثلك في العمر يجب أن يذهب إلى عمله . ولكنك بدلاً من ذلك تضيع وقتك عبثاً مع فتاة يوماً بعد يوم ، أو تستلقي على مضجعك باكياً . أفما زلت تنعت نفسك رجلاً ؟

كان يبدو أنه يتلو نصاً مكتوباً .

ومض في ذهني هذا السؤال : « أتراه رأى رونغ وذلك الفتى أيضاً ؟ » .

وسرعان ما خطر لي : « انت تعرف أسلوبه في الحديث .
فلا تلق إليه بالاً » .

خطوت إلى الدكة فجأة واخرجت رسالة شقيقتي من
الدرج . قلت :

ــ ألق نظرة .

وعرضت عليك بضع صفحات .

ــ هذه بعض التفاصيل عن موت شقيقي .

وفكرت :

ــ هذه قد تخرس لسانك .

تنهد وهو يقرأ . وقال من بعد :

ــ انظر ، هذا ينبغي أن يكون لك درساً .

فحرنت :

ــ لكن ، ماذا تراك تفعل بأولئك الذين يريدون أن تخدعهم
النساء من دون أن يبدوا تذمراً ؟

ــ لا تستطيع حيالهم شيئاً . إفرض أن هنالك بئراً
امامك ، وأنا أطلب إليك الا تقفز إليها ، في حين انك تصرُّ على
ذلك . فماذا أستطيع أن افعل ؟

قلت وقد كشرت لا انشراحاً بل غضباً ، رغم أني لم
اكن غاضباً منه :

ــ حسناً إذن ، يحسن أن تخرس لسانك !

١٦

جاءت إليَّ بعيد نهوضي من النوم في الصباح .

قلت في عصبية :

ــ زائر مبكر !

فابتسمت ابتسامة خريفية :

ـ أنت تبعث على السخرية . أهذا بسبب البارحة ؟
سألت ، وصوتي يرتعش :
ـ البارحــة ؟
ـ قلت إني سأحضر ولم احضر .
هذا هو الأمر إذن .
حثثت نفسي قائلاً : « إسألها ! من كان ذلك الرجل ؟ »
ـ من كان . . .
وترددت .
تضرج وجهها قليلاً ، والتمعت عيناها :
ـ من كان مــن ؟
ـ . . . تلك الفتاة صديقتك ـ التي خرجت معهــا في الصبــاح .
وجدت صعوبة في الحديث . واحمــارّ وجهي ، انــا الآخــر .
حذرتها ، وأنا أعزّي نفسي :
ـ انت تكذبين ! ولسوف تصحتُ الأمور معك .
ـ أوه ، تلك الفتاة ! بلى ، إنها من مسقط راسي ، وكان عليّ أن أتجول معها على مدى يومين . ذهبنا إلى جنوبي بوتيو طوال يوم كامل ، ذهبنا في بكور الصباح ولم نرجع أدراجنــا إلا في المساء . ثم ركبنا قارباً وراقبنا النجوم ، النجوم الجميلة في البحــر .
همست في نفسي ساخطاً : « قصة حلوة ! » .
أقنعتني اسلوبها غير الطبيعي في الحــديث أنها تكذب . وبالاضافة إلى ذلك فقد شاهدت ذلك الرجل بعينيّ .
ـ عرفت أنك ستمضين النهار بطــوله ، فلجــأت إلى

مضجعي باكراً بدلاً من أن انتظرك .

كنت قادراً على الكذب ايضاً . وليس من الخطأ أن أردَّ لها من ذات بضاعتها .

ولكنني نهضت في ساعة متأخرة . فكيف أعلل ذلك ؟

ـ لسوف ترحل غداً . ولن يزعجنا أحد في المستقبل .

قالت ذلك وكأنها تنطق بالحقيقة .

ـ ما اسمها ؟

ـ لين خيوجوان .

ـ لين خيوجوان .

رددت الاسم وفي ذهني ذلك الرجل الثلاثيني بوجنتيه السمينتين وشاربه الخفيف . اسمه لين خيوجوان ؟ وضحكتُ .

قالت ، وهي تنظر إلى الزنابق على الدكة :

ـ ما أجمل هذه الزنابق ! أرسلت الصبي يشتري منها ، فرجع يحمل مجموعة تعيسة بحيث كدت أبكي . وكان عليَّ أن أذهب واشتري هذه بنفسي .

هذه المرة نطقت بالحقيقة . يجب أن أكون ممتناً واغفر لها رغم كذبها .

كانت الزنابق حلوة حقاً . ظلت منتعشة الليل بطوله بحيث استعذبت النظر إليها .

تلك الزنابق هي رمز حبنا . ولسوف تنتعش أيضاً ، أليس كذلك ؟

بدأنا نتحدث على مألوف عادتنا ، نتحدث عن الحب .

اولاً أستطيع أن أميز الكذب من الحقيقة . ولكنني سرعان ما شرعت أعتبر كل ما كانت تقول ، حتى الكذب ، مثل

الحقيقة . كنت واثقاً ان الأمر سواء بالنسبة إليها .

الحب شيء غريب ، نوع من ألعوبة . لكننا بدلاً من ان نلعبها تروح هي تلعب بنـا . إن كان مزاجها صافياً تغدق علينا الخمرة ، ولكنها تستمطر دموعنا في أحايين اخرى .

لا يهمني إن كذبت عليّ أو لم تحبني طالما انها تأتي إليّ غالباً بابتسامات وزهور . وكنت أحبها على أية حال . وأقبل كذبها باعتباره حقيقة . وإذا قبّلتني فإن الأمور تغدو افضل .

١٧

تلقيت وصية شقيقي الأخيرة . لم تكن طويلة . أقل من عشرة آلاف كلمة .

اتضح من محتواها أنها لم تكتب في يوم واحد ، بـل تطلبت اكثر من أسبوع كامل منـذ بدايتها حتى نهايتهـا . والحقيقة أن النقاط في آخرها تشير إلى أنه كان لديه أشيـاء أخرى يتحدث عنها كتابة .

أنا أقتل نفسي برغبتي الخاصة ، ولأنني
أريد أن أموت . لم يرغمني أحد على ذلك .
وليس هنالك من هو مسؤول عن موتي .

هذه هي بداية الوصية .

أردت أن أموت لأن الموت،بالنسبة إليّ،
افضل من الحياة .
أنـا لا أتشبث بـالحيـاة . ولكنـني
أتشبث ...
أنا أحبها ، وسأظل أحبها إلى حين يجيء
الموت ، ولا أبرح أتمنى لها السعادة ...
أنا أقتل نفسي ليس بسببه من الحب ،

لكن لأن الحياة لا تطاق . الحياة التي لا تطاق
يجب وضع حـــدٍّ لها ، كمـــا قال الآخـــرون
مـــن قبل .

إلى حين وفاته كان شقيقي يتحدث بمثل هذا الاسلـــوب الرفيع . ولكنه كتب في مناسبة أخـــرى .

فيم ينبغي عليها أن تتـــزوج من اســـرة
وانغ ؟ أفلم تؤكـــد لي مراراً أنها لا تحب ذلك
الرجل ، ولا تحب سواي ؟

وفي يـــوم آخـــر كتب :

لقد تزوجت ! تقول شقيقتي إنها كانت
راضية رغم أن الفكرة هي فكرة أمها .
وهكذا فإن جميع أيماناتها كانت كاذبة .
لكم كنت أحمق ! ظلت تخدعني طويلاً ، ومع
ذلك ظللت أصدقها ضمنياً .

وفي يـــوم آخـــر كتب :

ما أسوأ أنكم أيها الرجال الذين خدعتكم
النساء لن تفتحوا عيونكم على ذلك الواقع !
وأفضل ما تفعلون هو الانتحار !

وكتب فيما بعـــد :

هل يخيفها انتحاري ويجعلها تذكرني إلى
الأبد ؟ ربما لا . فذاكرة النســاء ضعيفة .

وكتب ذات يـــوم :

أنا لا أقتل نفســي بسببٍ منها . فهـــي
غير جديرة بذلك .

وفيمـــا بعـــد :

أنا أقتل نفسي في الحقيقة بسببٍ منها.
فأنا عاجز عن الحياة من دونها . هل تسمى
حياةٌ من دون حب حياةً ؟

وفي يوم آخر :

ليس ثمة في الماضي شيء يستأهل إمعان النظر فيه ! الليالي المقمرة ، والعشايا الندية العاصفة ، وحدائق الربيع وضواحي الخريف، والعالم بأسره يبدو لنا . كان هنالك زهور فحسب ، وضوء ، وحب ، ودفء في حياتي . أما الآن ؟ هذه الأمور كلها غدت ذكريات مريرة .

هي التي سرقت فؤادي تملك صوتاً مثل الموسيقى وابتسامة مثل ابتسامات الملائكة ، بريئة وطاهرة . كيف تطيق هجري إلى رجل آخر ؟ هل تراها تنسى جميع ايماناتها المقدسة ؟ هل تغندر وجهها وتبهرج ثوبها وتمضي أوقاتها مع ذلك الرجل في التردد الى المسرح ، والأسواق ، والمقامرة ؟

كلا ، أنا واثق انها لا تفعل ذلك . أفضل أن أموت عن أن أراها تتصرف على هذا الفرار. ولكن هذا ما تفعله الآن .

وكتب في صفحة أخرى :

زواج مدبر ، وزوج من دون حب ، والمفهوم التقليدي القديم ... قد دمروا سعادتي . أأحتمل هذه الأمور كلها واستمر

في الحياة ؟

جـدي القاسي ، وأبـواها القاسيان ، سرقوا منا شبابنا . أتعرفون مـرارة حيـاة من دون شبـاب ؟...

وفي صفحة أخـرى :

ترفضون ما أريد وتجبرونني على ما لا أريد .أنتم لا تعرفون مشاعـري ومـع ذلك تحكمون عليَّ حسب مشاعركم .

كي تمنحوا لأنفسكم قناعة مؤقتة فأنتـم تدمرون حياتي . ألا تعرفون أنه إذا كان لكـم أسلوبكم فإن من واجبي أن أمثل دوراً مأسوياً طوال حياتي ؟

مثل هذه الحياة عبـارة عـن جريمـة تدريجية . ويحسن لـو ...

وفي يـوم آخـر :

لدي سكين ــ هي خـلاصي . لسوف تعتقني من هذه الحياة التي لا تطاق .

جرعت قدحاً من نبيذ وردي على سبيل الاحتفال بالوداع . العالم يودعني . والنبيـذ أحمر بلون الدم . لقد جرعت دمي .

وفيما بعـد :

القمر جميل . لا أستطيع الموت في مثل هذه الليلة المقمرة الفاتنة . لو استطعت رؤيتها مرة أخرى تحت ضوء القمر في قميصها الأزرق الشاحب ، وهي تبتسم ابتسامتها البريئة .

كل ما أريد هو أن أقول كلمة واحدة لها أو
أجثو على ركبتي أمامها كيما تقبلني ، ومن ثم
أغرق سعيداً في العالم الأدنى .

ولكن هذا مجرد حـلم لا يمكن تحقيقه .

وفي يـوم آخـر :

نفذ ! خذ السكين أثمة شيء لا تستطيع
الافتراق عنه في هذه الحياة ؟

على كل امرىء أن يموت . وهذا ينطبق
عليّ أيضاً . يحسن أن أحمل السكين من أن
أموت قليلاً قليلاً .

أريد أن اموت . فليعش الآخرون وأنـا
أموت . لسوف تعيش هي ، ولكن الفتاة التي
أحببت طيبة كالموت ايضاً .

أنا أشرب الكأس الأخيرة مـن النبيـذ
الوردي . أنا سكران .

غداً سواي يشرب الخمـرة المصنوعـة
من دمي .

انتظروا حتى الغداة . . .

كانت هذه الوصية في حوزة شقيقتي . وكنت الوحيـد
الذي قرأها بالاضافة إليهـا .

١٨

رجعت رونغ لرؤيتي في تلك العشية ذاتها بعدما تلقيت
وصية شقيقي . وفيما أنا أقرأ الوصية نسيت رونغ ، ولكنني
نسيت شقيقي حينما رأيت رونغ .

فتاتي لم تخدعني أو تنكث بعهدي . وهي لم تغنـدر

وجهها بكثرة أو تلبس ثوباً مبهرجاً . وهي لم تعبث مع رجال آخرين في المسارح أو المخازن أو على موائد القمار . وكان صوتها أشبه برنين جرس فضي ، وابتسامتها دافئة مثل أشعة الشمس . وقد سيطرت على قلبي . ونسيت بسبب منها شقيقي . ورغم ذلك بررت لها أعمالها .

نادت ، فانحدر صوتها دافئاً مثله أبداً :

ــ لين .

ولكنني استشعرت شيئاً مغلوطاً .

خمنت أنها مضطربة لأنني لم أذهب لرؤيتها ذلك النهار . وشعرت أني أخطأت أمامها .

قلت وكأنني ألتمس لنفسي عذراً :

ــ تلقيت وصية شقيقي اليوم . ولذلك . . .

قالت في نبرة ثابتة ، فرنّ صوتها مرة أخرى أشبه بناي في أمسية خريفية :

ــ لين . عزمت على الذهاب إلى أهلي .

نسيت نفسي ، فصحت في صوت هزّ أركان البيت :

ــ الذهاب إلى أهلك ؟

إن ذهابها إلى أهلها يعني نهاية قضيتنا .

ــ أجل . سأسافر غداً صباحاً . أمي مريضة . . . وفضلاً عن هذا فثمة شيء أريد مناقشته مع والدي .

ــ غداً ؟ وبمثل هذه العجلة ؟ حسبت أنك لن تذهبي إلى أهلك إطلاقاً !

وغرقت على الكنبة يائساً ، وأحسست أني سأبكي .

جاءني صوتها أكثر حنواً منه قبلاً :

ــ لين . لا تقلق . سأعود في غضون ثلاثة أو أربعة

أيـام .

نسيت كل شيء ، فرحت أصارع في سبيل التمسك بأملي المتلاشي سريعاً :

ــ مستحيل . لن تذهبي . فأنت لن تعودي إذن !

وانحفرت الكلمات التالية في ذهني : « لسوف تهجرك إلى الأبد » . ودفنت وجهي في يدي .

شرعت تتنهد . فجعل صوتها قلبي يتوجع .

جاءت وجلست إلى جانبي. انحنت عليّ وشرعت تمسّد شعري بيدها الناعمة .

تذكرت : يوم كنت صغيراً بعد وأبكي للحصول على شيء ما كان ثمة يد ناعمة مماثلة تمسّد لي رأسي . تلك كانت يد امي التي تعفنت الآن في قبرها . وهذه اليد الآن تأخذ مكانها . لكن إلى زمن قصير فحسب . هذه اليد سترحل عني إلى الأبد أيضاً .

« لين ، صدقني . انا أحبك ، احبك من صميم قلبي .

« أحبك أكثر من أي شيء آخر، وأكثر من حبي لنفسي .

« سأكون صادقة معك ابداً .

« ما الذي يجعلك تظن أني لن أعود إليك ؟

« من هو جدير بحبي سواك ؟

« أنا أحبك ولن أهجرك أبداً .

« انت هو الوحيد الذي أهواه في هذا الوجود .

« صدقني ، سأعود في غضون ثلاثة أو أربعة أيام .

« ليس ثمـة ما يمكن أن يحطم حبي لك .

« حبي لك أزلي مثل النجوم ... »

كان ثمة دموع فيما قالته . كان اشبه بمطر خريفي يبلل

قـلبي .

وكان قلبي ينزف .

ــ أرجوك ألا تعـودي إلى أهلك . عديني ألا تعـودي إلى أهلك .

أمسكت يدها وهدهدتها كمـا لو كنت أتشبث بآخـر آمـالي .

ــ لين ، أفهم شعورك . لكنني لن أتأخر . انتظر فحسب ثلاثة أو أربعة أيام . سأعـود قبل أن تذبل تلك الزهـور في الإناء لديك .

وتبلل قلبي من جديد بالمطر الخريفي .

ــ أواثقة أنت ؟ قد يحجزونك في البيت زمناً طويلاً . قد لا يسمحون لك بالعودة .

وبدا الرجل الثلاثيني بوجهه السمين في عيني ذهني من جديد . إن لقرارها صلة بذلك الرجل .

ــ سوف يسمحون لي بالعودة . قلبي هنا ، ولذلك لن يحتجزوني هناك .

بدت واثقة مـن كلامها .

ــ قد يكونون يخدعونك بشأن العودة إلى البيت . قد تكون أمك في أحسن حال ، أو ربمـا هم يستخدمون شللهـا ذريعـة .

ــ هم لا يفعلون مثل هذا الشيء . لو كانت أمي في صحة طيبة فيقتضي أن أعود لرؤيتها . هي تبـكي أحياناً لأنهـا تفتقدني . وباعتباري ابنتها يجب أن أذهب وأواسيها .

ذكرني صوتها الحنون المكتئب على حين غرة بما قالـه لي خـو مـرة .

كل الناس ، فيما عداي ، لديهم أمهات. وبينما هي تعنى بأمها أخسر أنا سعادتي ...

ــ وفضلاً عن هذا ، فثمة شيء أريد بحثه مع والــدي ، شيء على جانب من الأهمية .

ما هو هذا الشيء ؟ قضيتنا ؟ إذا اخبرت والدها عني فسيكون ذلك شؤماً .

سألت مشدوهاً :

ــ أفلا يكره والدك الناس من المقاطعات الأخرى ؟

ارتعش صوتها قليلاً وكأنها ليست واثقة :

ــ لا أهمية لهذا الأمر . أنا أحبك ، ولا شيء يمكن أن يوقفنــا .

وهكذا أوضحت أنها ماضية لتحادث والدها عن قضية حبنا . فيم ينبغي عليها الذهاب ؟ كان واضحاً أن ثمة شيئاً قــد حــدث .

ــ رونغ ، لا تذهبي . إن طلب موافقة والدك ستجعلك تضربين رأسك بجدار . لم لانتابع أمورنا على ماهي عليه ؟

ابتسمت ابتسامة خريفية جعلتني أشعر وكأنني أبكي.

ــ يا لك من رجل شكوك ! أفلا تراني أعرف طبيعــة والدي ؟ وفضلاً عــن هذا ، فلسوف اذهب للاطمئنــان عن والدتي وأؤكد لها أنني على خير ما يرام هنا ، وبذلك يرتــاح ذهنهــا .

أمي ، أمي ، وتظل تضرب على وتر أمها ! ولكنني مــن دون أم .

ــ فيم إصرارها على ذلك ؟ أفلا يفضل لو أننا ذهبنا معاً ذات يــوم ؟

« لين ، لِمَ لا تصدقني ؟ أنا أحبك . أليس هذا ضمانة كافية ؟ لو كنت أود خداعك حقاً كنت تركتك دون أن أخبرك .

« لا تلحف في الحديث عن ذلك . إذا فعلت هذا فسأغضب منك وأرفض الحديث معك .

« أنت ما برحت لا تفهم كيف أحب أمي . لن أشعر بارتياح ما لم أرجع وأجتمع بها » .

فكّرت في شيء من هياج : « أمك مرة أخرى ! » .

ظهر وجه خو الشاحب أمامي من جديد . كان يبدو أنه يعيب عليّ الأمور على مألوف عادته : « لا تترك الاعتبارات الأنانية تعميك عما هو صحيح . لا تمنعها من الذهاب لرؤية أمها » .

لم يكن خو في الغرفة ، بل في ذهني .

ماذا يمكن أن أقول بهذا الخصوص ؟ إن سعادتي ستذهب هباء بسبب من أمها .

« إذهبي إذن . ولتطر السعادة والرجاء من بين يدي . فسوف يرافقني حبي إلى الأبد . هي لن تخدعني . أنا أصدقها ، وأصدق حبها » .

حاولت أن أعزي نفسي على الرغم من يأسي .

١٩

كان الليل في أوله حين رحلت .

على صفحة السماء السوداء عناقيد من النجمات ، النجمات الأزلية .

كان الليل هادئاً ساكناً ، والهواء لطيفاً بارداً . يالها من ليلة رائعة !

اقترحت :

ـ فلنركب قارباً لمراقبة النجوم . إنها ليلة رائعة !

أجبت ، وقد أفعمني التأثر بحيث لم أنطق حرفاً آخر :

ـ رائـع .

ـ فلنسرعنَّ إذن .

وصلنا إلى الرصيف واستأجرنا قارباً .

جدف بنا النوتيُّ إلى منبسط البحر .

استكانت إليَّ ورأسها بين ذراعيَّ . استنشقت العبـير من شعرها ودللتهـا .

الصوت الوحيد الذي نسمعه هو اصطدام المجدافـين بميـاه البحر .

رفعنا وجهينا معاً لرؤية تلك النجمـات المتألقة البيضاء والحمراء والخضراء .

كان ثمة أضواء على الشاطيء . وكان الليل يلفنا مثلما تلفنـا النجمات في السماء .

« لم يكن إلاَّنا في هذا الوجود .

« وليس من يستطيع أن يندس أو يفرّق بيننا .

« أنا أحبك وأنت تحبني . ولسوف يحب أحدنا الآخر إلى الأبد ، ويبقى حبنا أبدياً مثل هذه النجمات » .

هذا ما همست به في عذوبة كما لو في حلم .

انحنيت نشوان لتقبيل شعرها الكثيف .

كان قلبي يطفح هياماً . نسيت نفسي ، ونسيت كل شيء إلاهـا .

كانت الإنسـان الوحيـد في عالمـي .

ـ أوه ، أنظر إلى درب التبَّان . إنها تشبه حـزامـاً أبيض سديمياً . فيم هي شاحبة على هذا الفرار ؟

أشارت إلى السماء وهي لا تبرح تخرخر :
ـ ليس هو الخريف الآن !
وفيما أنا أردّ سموت ببصري إلى حيث كانت تشير .
ـ لين ، أترى ذلك الصف من ثلاث نجمات إلى الغرب من درب التبان ؟ أفليست تلك النجمة الصفراء الكبيرة في الوسط هي راعي البقر ؟
« أوه ، وهنالك ثلاث أخريات على الضفة المقابلة . أفليست تلك النجمة الكبيرة الزرقاء الشاحبة حبيبته نسّاجة الثياب ؟[1]
« يا للعاشقين المسكينين ! لا يستطيعان اللقاء إلا مرة واحدة في السنة .
« لم ليس هنالك قوارب في درب التبان ؟ لم ليس هنالك جسر فيما عدا السابع المضاعف ؟ » .
وظلت تهمهم .
ضممتها إليّ ، وأنا أشعر أننا في حلم .
« لم لا يستطيعان اللقاء إلا مرة واحدة في السنة ؟
« فيم ينزل بهما العقاب بمثل هذه الوحشية ؟
« أفي السماء كما على الأرض لا خيار في الحب ؟ أفلا تملك نجمة سيدة الحق في انتقاء حبيبها ؟
« درب التبان ليست عريضة أو عميقة . لم لايبني أحدهم جسراً دائماً يستطيع الراعي عبوره الى النسّاجة ؟ »
كنا لا نبرح حالمين .

---

(1) في الميثولوجيا الصينية راعي البقر ونساجة الثياب عاشقان لايسمح لهما باللقاء الا مرة واحدة في السنة في اليوم السابع من الشهر القمري السابع .

ـ أود لو أبني جسراً يستطيع العشاق عن طريقه اللقاء يومياً .

تحدثت حالة ، وهي ترفع بصرها إليّ ، وعيناها نائمتان .

ـ رونغ ، كيف تعبرين عن شعورك تجاه الراعي ؟ سرعان ما سأخسر نساجتي .

وما أسرع أن تذكرت النهر الذي يفصل بيننا . استيقظت جافلاً معتصر القلب وجعاً .

ـ لسوف أعود ، أعود إلى جانبك إن لم يكن غداً ، فبعد غد أو اليوم الذي بعده .

ـ لن أكون قادراً على رؤيتك في مثل هذا الوقت غدا . أنا لست مجدوداً مثل الراعي الذي يستطيع ، في أقل تقدير، رؤية نساجته .

ـ لسوف أراك لأنني حملت ملامحك في عينيّ .

ـ رونغ ، لا تراقبي النجمات الآن . اقتربي وأتيحي لي فرصة إلقاء نظرة طيبة إليك بحيث أحفر وجهك في عينيّ .

ـ لين ، هل تستطيع أن تراني بوضوح ؟ أخشى أن الضوء ليس كافياً .

ـ أستطيع رؤيتك تماماً على ضوء النجمات وعينيك . والآن ، لا تتحركي ، فأنا ...

ـ اشعر أني أذوب ، يا لين . شدني بقوة . لا تتركني ارحل .

ـ أشعر مثل شعورك ، يارونغ . احسب انها المرة الأخيرة التي نكون فيها معاً . وبعد اليوم كل شيء سيضيع .

ـ كل شيء سيكون مغمّاً غداً . هل تكون النجمات

والقمر فـوق رؤوسنا على مثل ضيائها اليوم ؟

ــ رونغ ، لن يكون هنالك نجمات غداً . سيكون هنالك مطر ، مطر خريفي . لسوف يكون الخريف غداً .

ــ بهذه السرعة ! ليالي الربيع قصيرة جداً ! أنظر ، نجم آخـر يهـوي .

ــ نجم يهوي ! نجم آخر يهوي في حياتي .

ــ لين ، هل يعـود ؟

ــ كلا ، حينما يقع ، فهو يترك السماء نهائياً .

ــ أوه ، غـداً ...

ــ رونغ ، أما زلت تذكرين أنشودة تلك الفتاة الغجرية في « الوسيع »(١) . كنت دائماً تغنينها . هلا غنيتها لـي مرة أخـرى ؟

ــ قلبي يذوب الآن . ولا أستطيع الغناء . شدني بقوة ولا تتركني أرحل ! أوه ، اليوم ، اليوم فحسب أنا لاأزال ...

لم أعد أستطيع رؤية عينيها .

حضنت وجهها وقبلته في جنون .

ما كنت أطيق خسارتها . فهي أغلى عندي من حياتي .

بدت الليلة وكأنها ليلة السابـع المضاعف حـين يلتقي الراعي والنسّاجة .

وفي الغداة ، في بكور الصباح ...

اليوم ، اليوم فحسب ،
لا أزال من الملاح ،
وفي الغداة ، أوه الغداة ،
سيمضي كل شيء مع الرياح(٢)

---

(١) رواية للكاتب الالماني ت . ستورم .

(٢) سطور من اغنية قصة « الوسيع » .

٢٠

في صبيحة اليوم التالي رافقتها إلى سطح مركب بخاري صغير .

تبادلت وإياها بضع كلمات ، واضطررت للنزول عن السطح حين دوت صفارة .

قبل نزولي ، وأنا أمسك يديها ، لاحظت أن عينيها ندياتين بالدموع .

انفجرت هنالك :

ــ أرجو أن تنتظرني ...

وتدبرت امري كي أكمل جملة كاملة :

ــ يجب أن تعودي !

ابتسمت لها رغم العبرات المتهاطلة من عيني :

ــ عودي بأسرع ما تستطيعين !

جلست في القارب ولوّحت لها بيدي . ومن سوء الحظ انها كانت مخفية وراء امرأة سمينة .

سألت نفسي مراراً ومراراً ، وأنا أرنو إلى المركب يبتعد :

ــ أهذا حلم أم حقيقة .

حين ابت إلى البيت غرقت في سريري وقد هدني الضنى . جافاني النوم . اردت أن ابكي فلم تسعفني الدموع . كنت منهكاً بحيث أقف على قدميّ . ولم أتمكن إلا من التحديق في السقف بنظرة خاوية .

٢١

لم تصلني منها أخبار طوال ثلاثة أيام . أحسست أني هرمت .

رحت أطوف في الشوارع من بكور الصباح حتى المساء . وحين كنت أجوع فأنا أتناول الطعام في مطعم غربي . وحين أظمأ أتناول بوظة في أحد المقاهي . وكان قلبي يحترق بالقلق .

لم يزرني خو أياماً عديدة . أردت أن أراه وخشيت مواعظه الأخلاقية .

كنت أشعر بالوحدة . .

في الليل أذهب إلى سريري متعباً ، ولكن ذهني لا يكف عن الحركة .

« لسوف تعود غداً » .

« ماذا أقول لها ؟ » .

« إذا رجعت فلن تهجرني مرة اخرى . ولسوف تغدو لي إلى الأبد » .

« هل يمنعها والدها عن العودة ؟ » .

« هل يعوقها شيء ؟ » .

« إذا أعاقها شيء فهي لن تعود » .

« مؤكد أنها ستعود . فقد وَعَدَتْ » .

« مؤكد أنها ستعود . فهي لن تخدعني » .

« رويدك فحسب . بعد هذه الليلة ينقلب كل شيء رائعاً » .

« أوه ، فيم هي طويلة ليالي الربيع ؟ » .

٢٢

انسربت أشعة الشمس تضيء غرفتي في الصباح التالي . فركت عيني المتعبتين ، وتثاءبت في وجه الشمس . حلمت أنها عادت وروت لي أشياء كثيرة عذبة .

ارتديت ثياباً أنيقة ، وأسرعت إلى الرصيف لملاقاتها .
انتظرت زمناً طويلاً عودة ذلك المركب البخاري الصغير.
لكم تأخرت عودته هذا النهار . ولكنه رحل سريعاً في ذلك النهار .
جاء أخيراً وجعلت صافرته قلبي يثب فرحاً .
استأجرت قارباً وأسرعت لملاقاته .
بدأ المركب يفرغ ركابه وبضاعته .
بحثت في كل مكان عن رونغ .
كان هنالك رجال ونساء ، وشيوخ وشبان ، لكن من دون أية دلالة على فتاة بجاوية العينين هيفاء الحاجبين .
اسرعت إلى سطح المركب وناديت باسمها فما سمعت جواباً .
ركضت حتى السطح الأخير .
كان بعض الركاب يتمازحون على سجيتهم . فتفحصت كل وجه بدقة .
حين وصلت إلى السطح الأخير لم يكن هنالك كثير من المسافرين .
ــ رونغ !
فتشت المركب مرتين ولم أعثر عليها .
قلت في نفسي في روية :
ــ لا ريبة أنها نزلت .
واقنعت نفسي :
ــ بلى . هذا ما فعلته .
رجعت إلى القارب ، ووصلت إلى الشاطيء ، وركضت إلى بيتي .

حين بدا البيت أمامي بذلت جهداً إضافياً . تجـاهلت الكلب النابح ودفعت البوابة ففتحتها ، وناديت :

ــ رونـغ !

لا جواب . كل شيء في الغرفة على ماكان عليه . لـم يأت أحـد .

قلت في نفسي في مزيد من الحكمة :

ــ يالك من مأفون ! لا بدّ أنها ذهبت إلى بيتها أولاً ! لا بدّ أنها تنتظرك في غرفتها الآن !

وانطلقت على الفور .

كانت البوابة الخضراء مغلقة لم تنفتح رغم دفعي إيـاها بشدة . ضغطت على الجرس فما ردّ أحد . قرعت عـلى البوابة ولم يجئني جـواب .

كانت الأزهار الحمراء والبيضاء في الساحة قد بـدأت تذوي فذكرني ذلك بأزهاري في البيت .

كان المنخل الأخضر والستارة البيضاء المخرمة يحجبان كل شيء في الداخل .

داعبت الشمس ظهري ، وتنهّد كمان .

اجتزت المنزل الآخـر فابتسم لي طفل .

ومضت في ذهني فكرة براقة ثالثة : « قد تعود غداً » .

ولكن غداً يبدو مغرقاً في البعد .

يجب أن أكتب إليها أستوضحها السبب .

« الورد سيذبل سريعاً ، فلم لا ترجعين ؟ » .

٢٣

وصلتني رسالتها . أرسلتها بالبريد العاجل .

كانت مختصرة ومعناها واضحاً وتناديني السيد لين .

عزيزي السيد لين . أدرك أن علاقتنا في الماضي كانت صبيانية . سأعمل الآن بنصيحة والدي ، فأدرس في البيت وارعى شؤون أمي . ولذلك لن يكون بيننا شيء نتبادله من الآن فصاعداً ، وأرجوك ألا تكتب لي وإلا عادت رسائلك إليك دون أن تفتح .

مع أطيب تمنياتي ، وأرجو لك صحة طيبة .

المخلصة ،

زينغ بيرونغ

كانت الرسالة بخط يدها !

« ما أسوأ أنكم أيها الرجال الذين خدعتكم النساء لن تفتحوا عيونكم أبداً » .

« أفضل ما تفعلون هو الانتحار » !

هاتان الجملتان من وصية شقيقي تفجرتا في ذهني .

« إياك ! فالمرء لا يستطيع غير البكاء على الشقاء في هذا العالم ! » .

بكيت بمرارة، وعيناي تطفحان دموعاً، وقلبي ينزف دماً .

حدقت من خلال عبراتي إلى صورتها وصورة غاربو على الجدار .

ـ مماذا في الأرض جبلت قلوب النساء ؟

سحبت الورد الذي أعطتنيه من الإناء . وعَدَتْ ، وهي تشير إليه ، أنها ستعود قبل أن يذبل .

ولكن الورد ذبل .

ضغطت الورد على قلبي ونحت . رغبت أن أنعشه بدموعي ، الدموع المعتصرة من قلبي .

٢٤

لم أعد أخرج في نزهات لأن الربيع ارتحل . ولم أعد أدلف إلى الحديقة لأن الأزهار لن تعود من جديد جميلة مثلها قبلاً . ولم تعد أشعة الشمس تبسم لي ، والنجمات فقدت ضياءها .

لم يعد هنالك عبير أو أشعة شمس في غرفتي . هنالك فقط صورتا رونغ وغاربو ، ووصية شقيقي وتنهداتي .

حلمت النهار بطوله ، إما أن أقتل نفسي أو أن تموت هي .

« ما أسوأ أنكم أيها الرجال الذين خدعتكم النساء لن تفتحوا عيونكم أبداً ! » .

« أفضل ما تفعلون هو الانتحار ! »

وأنا تنقصني الجرأة على تناول السكين في يدي .

جاء خو . وحين سمع ما حدث هبّ ينتقدني كالعادة :

ــ أخبرتك أن حبكما لن يؤول إلى نهاية سعيدة .

هاجمته غاضباً :

ــ ولكنني أحبها . أحبها من صميم قلبي .

وعرفت أنه سيشرع في موعظته الأدبية .

« الناس لا يعيشون على الحب وحده » .

« النكث بالعهد ليس شيئاً . النساء هنّ مجرد جزء حقير في هذا العالم الفسيح المترامي أمامنا » .

« ليس هنالك ما هو أكثر حماقة من الانتحار على غرار أخيك » .

« لا أريدك أن تقفز في بئر » .
« ثمة وفرة من الفتيات الطيبات . ففيم تقتل قلبك على رونغ ؟ » .
« الحياة في مكتب الصحيفة تبعث على القرف ! » .
وانتهت مواعظه بشكواه الثابتة :
ـ الأم ، أمي ! . . .
الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن ينساه هو أمه .
لم يكن لي أم . فأمي ماتت منذ زمن بعيد .

٢٥

« أنا مريض ، مريض بالقلب ؟
« لا أشعر برغبة في الطعام أو الإتيان بأي عمل . أريد أن أستلقي فحسب وأبكي .
« بدأت أذبل . وفي كل يوم أنظر إلى نفسي في المرآة وأتنهد .
« هل ذبلت براعم الدراق أمام ضريح شقيقي ؟ أرجو أن تلتقطي بعض التويجات وترسليها إليّ ! تلك التويجات الزهرية تماثل لون خدي حبيبة قلبي .
« أطلّ الخريف . هذا الخريف لن يحمل إليّ الأزهار بل المطر ، قطرة بعد قطرة من المطر حتى أصاب بالخبل !
« إنه الخريف في قلبي ، الخريف في الربيع الذي هو الفصل الوحيد في حياتي .
« أفكر في بيتي القديم ، وضريح أمي ، وأزهار الدراق أمام ضريح شقيقي ، ووجهك .
« من تراه يمكن أن ينسى المشهد في وادي يانغتزي ؟ لسوف أعود .

« إذا كان يجب أن أموت ، فأفضل الموت في بيتي القديم .
« حين يأتي الخريف الحقيقي سأجرُّ جسدي الواهن إلى البيت » .
هذا ما كتبته إلى شقيقتي .

٢٦

حين شارف الخريف على الانتهاء عزمت على العودة إلى البيت . وحجزت تذكرة السفر . قبل الانطلاق تلقيت رسالتين مرسلتين إليّ من خو .

لين ، تعال غرّق فيّ عينيك ! فأنا على سرير الموت . ويجب أن أراك قبل أن أموت كيما أرجوك أن تغفر لي . تعال كيفما كان ، فينبغي أن أراك .

ظللت مريضة أكثر من شهر كامل . الموت لا يبعث الرهبة في من فقد كل شيء . لكن الوحدة ، وحدة قلبي ، والموت ميتة وحيدة ، والاستلقاء في ضريح وحيد والريح تنفخ عبر الأشجار حواليك ، مثل كثرة من الحزانى ــ كيف أطيق مثل هذه الأمور كلها !

ليست هنالك شمس خريفية تشرق عليّ . وأنا لا أطيق احتمال عض لحاء شجر اللونغان . فإن الشراب العشبي المخمر شديد المرارة ، وهو دائماً شديد المرارة . ووالدي مثل تمثال إله حجري ، يتابع إلقاء خطبه فكأنه يتلو أشياء كلاسيكية .

غالباً ما أرمي العشب المر حين لا يكون أحد حوالي . فيم أشربه ؟ بالنسبة إليّ الموت أفضل من الحياة .

سرعان ما يحلُّ السابع المضاعف . والنجمات في السماء لا بدّ أنها تتألق ! ومن سوء الحظ أني لا أستطيع أن أنهض

لمراقبة الراعي والنسّاجة في لقائهما السنوي .

متى يأتي راعيَّ لرؤية نسّاجته ؟ البحر ، والسماء ، والنجمات . . . لكم أفتقدها جميعاً !

رفضت الزواج من عائلة تشين . أؤكد لك أنهم لا يستطيعون إرغامي بالقوة . وهبت لك نفسي وقلبي وروحي . وأنا أموت .

أحبك ، وسأحبك إلى الأبد !

أما برحت تكرهني ؟ هل تصفح عني لكتابة مثل هذه الرسالة المختصرة ؟

تعال ! تعال إليَّ ! سأكون سعيدة حتى ولو وبختني لأنني عندها أكون واثقة من أنك معافى ، ولم يطلق أبي على رأسك رصاصة من مسدسه .

تعال ! تعال حين لا يبرح خدّاي وردين .

مع حبي ،

رونغ

تلك كانت الرسالة الأولى .

السيد لين ، توفيت ابنة عمي الكبرى في الساعة التاسعة والنصف صباحاً من اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر . طلبت إليَّ أن أقطع خصلة من شعرها وأرسلها إليك . وهذا ما فعلت .

ماتت في هدوء ، ووجنتاها ورديتان ، وانغلقت عيناها في بطء ، وانحنت شفتاها في ابتسامة باهتة . وأضاءت أشعة شمس الخريف وجهها فحسبنا أنها غارقة في نومها .

آخر الكلمات التي سمعناها ترددها هي : « الحب ... النجمات الأزلية ... أزلي مثل النجمات ... » .

مع أطيب تمنياتي ، راجيـاً لك صحة طيبة .

المخلص ،

زينـغ بيبو

كانت الرسالة الثانية بخط ابن عمها بعيد ثلاثة أسابيع من الرسالة الأولى ــ أي قبل أكثر من عشرة أيام .

صحت في وجه خـو :

ــ متى جاءت الرسالتان ؟

ــ تستطيع التحقق من خاتم البريد . لقد احتفظت بهما خشية من أن تلغي زيارتك إلى أهلك وتستسلم للجنون مـن جديد . لهذا السبب لم أسلمك إياهما إلا اليوم . ولم أقصد شـراً .

ومض وجه خـو النحيل وهـو يتمتم بكلماتـه بحيث استغرق فترة مديدة من زمن لإنهاء حديثه . كان واضحا أنه غير هازل ، وأنه يحاول أن يبرر نفسه بصورة خرقاء .

إنها المـرة الأولى التي أرى فيها هذا الأخلاقي مرتبكاً . وكنت ، أنا نفسي ، أكاد أبكي غضباً .

أعطيته الرسالتين ، وأنا ألعنه في نفسي :

ــ ألق نظرة . أخلاقياتك دمرتني وقتلتها !

لم أعالنه بذلك . لا ريب أنه لم يقصد شراً .

هذه نهاية كل شيء حقاً .

غرقت في كنبتي ، وأخرجت خصلة الشعر مـن المغلف الثاني وتفحصتها على راحة يدي .

قميص زهري ، وتنورة قصيرة سوداء ، وعينان متألقتان ،

وحاجبان أهيفان . . . إنها صورة ومضت أمام عيني .
ولكنها اختفت سريعــاً .
ثبّتّ عينيّ على شعرها وخفضت راسي بحيث مسهــا
وجهي تقريباً . بدا أني أستنشق عبير الزنابق .
قبلتها مثل من يقبل ذكرى جميلة .
لكم كان الشعر ناعماً !
كان له عبق الــورد .
وذكّرني بالربيع في الجنوب .
لكن ، هل يكون هنالك ربيع في حياتي من جديد ؟

١٩٣٢

صدر في سلسلة الجداول

ترجمـــة

المحامي سهيل ايوب

* الغريب	ألبير كامو
* أقاصيص سيباستوبول	ليو تولستوي
* خريف في الربيع	با جين
* الوميض	جون شتاينبك
* أمسيات قرب قرية ديكانكا	نيقولاي غوغول

صدر في سلسلة الينابيع

ترجمـــة

المحامي سهيل أيوب

* فاوست (الترجمة الكاملة) غوتـــه
* نذير العاصـفة مكسيم غوركي

الجداول والينابيع ص.ب ١٠٧٤٠

دمشق – ج.ع.س

إني أحب أبنائي ،

أحب جيل الشباب ،

وينبغي أن نخلق من أجلهم عالماً

أجمل من عالمنا ،

ونهيئ لهم مستقبلاً

أفضل من مستقبلنا ؛

فإذا استطعنا أن نحقق السلام للشباب

أمكننا القول إننا أتممنا رسالة الآباء ،

رسالة الكتاب ،

رسالة الإنسان .

بابيت

الثمن [redacted] ليرات